عصر واوا

بقلم

فؤاد قنديل

●

دار الهلال



الغلاف لوحة مهداة من

الفنانة : نجاح طـــاهر



(١)

الجسد الممدد على السرير ساكن تماما . لا تدب فيه أية حركة .. يسيطر عليه سكون لا يدانيه الا سكون النهاية .. حوله الأهل معلقون بالانتظار والأمل .. يتمنون لحظة تصل فيها إليه .. قطرة من وعى .

بدا كل شىء كأنه ينتظر هذه اللحظة ، حتى الصمت نفسه كان يترقب لحظة انبثاق الحياة من الموت .

طمأنهم الطبيب على صحة شريف ... لا يزال حيا ... النبض ضعيف ، لكنه سيتحسن بعد أن يفيق ويبدأ فى تنفيذ برنامج غذائى مكثف .. منعهم من الدخول عليه .

وقف لهم العسكرى بسلاحه ليحرس الأوامر الواضحة والحاسمة ..ممنوع الاقتراب من باب غرفة المصاب الا بإذن النيابة .

ذهب منير البدرى الى الطبيب النوبتجى ... طالبا الدخول ، فسمح له بوصفه صحفياً ومعه دخل عبد الرحمن شمعة .. سعى فريق آخر للنقيب سليمان الملط . ليسمح لهم برؤيته .

الى قلوبهم تسلل الملل والخوف ... خرجوا الى الردهة يرتقون ثوب الانتظار .. مضت الساعات دون جديد .. أخذت ناسا معها وجاء آخرون .

فى منتصف الليــل تقريبــا تململ الجسد .. وصلت كهـرباء

الحياة .. فتح عينيه وأغمضهما .. عاد ففتحهما ... ابتسم الجميع واستعدت القلوب للفرحة بتمام النجاة .. أطال شريف النظر فى كل الوجوه المبتسمة والشفاه التى تتمتم بحمد الله .. نبتت فى عينيه أسئلة حول سبب الابتسام وسر هذا التجمع .

شرعوا تدريجيا يتحركون ويتقاربون .. يتداخلون فى اتجاهه .. تنضم الأكتاف الى الأكتاف .. تلتصق الأجساد كلها قريبة من الوجه الذى يحتاج الى تحديق وتأمل للتعرف عليه ... كان وجها آخر ... ذقنا طويلة وبشرة كالحديد الصدئ وعينين ليستا غير بحيرتين من غمام أسود وذهول ، شفتين شاحبتين .. ملامح مكدودة وذبول .. تأكد الجميع أنه آخر من تبقى من أهل الكهف .

لعله كان وجهـا آخر لنفس الشخص .. وربمـا أصبـح شخصـا آخر ... لا أحد يعرف ما الذى جرى ؟ وهـو الآن بنظراته المحلقة التى لا تكف عن الدوران تحاول استطلاع الأشياء والجدران والمكان ، يبدو كأنه غاب عن الدنيا وزمانها دهرا لا أحـد يدرى مداه ، وهو .. مثلهم لا يعرف ما الذى جرى ، استقرت نظرته أخيرا على الوجوه .. وبدأت فى التعامل معها ، كان كل من يحس أنه ينظر اليه يبتسم له ابتسامة كأنه سيلتقط له صورة ، ولعله كان يريد مساعدته على معرفته بسهولة.. هذا .. عم فريد السخن والد سلوى ، لا بد انه هو ، ولكن ما الذى جرى له ؟ لقد فقدت بلونة جسمه الكثير .. وهذا حسين قربة بائع العصير وهذه .. من هذه .. ؟ آه .. أختى أليفة .. لم أرها منذ زمن .. لقد سمنت واختفى ساعداها داخل مواسير الذهب .. ابتسمت أولا ثم انفرطت فى البكاء .. كانت المسافة بينها وبين صدره بعيدة فسقطت

عند ركبتيه واهتز السرير ومن عليه تحت وقع نشيجها العالى الذى كانت تغترفه من آبار عميقة ونادمة .

بدا جامدا تماما وهو ينظر اليها بعينين تتساءلان عن سر البكاء، تقول بأسى حاد : سلامتك يابا .. ألف سلامة عليك ياحبيبى ، وسرعان ما انتقلت العدوى الى ثلاثة من الشباب فانهاروا فوق بعض وعلا نحيبهم . أعطى هذا فرصة لأليفة كى تعود للنشيج العاصف ، حريصة على الاحتفاظ بمكانتها بوصفها أول من افتتح البكاء .

تحول شريف الى الشباب محاولا التعرف عليهم . تصور فى البداية أنهم لا بد أولاد أليفة . ولكنهم كانوا صغارا جدا قبل شهر .. وأكبر أبنائها بنات هن الآن فى سن الزواج .

قال لها منير البدرى فى عتاب حاد :

– الواجب أن تزغردى ياحاجة أليفة لا أن تقلبيها مناحة .

تحول إليه شريف .. تمالكت نفسها رائدة البكاء وقالت :

– هذا أبى ياأستاذ منير وليس أخى .

– قال منير : وها هو أبوك بخير .

رفعت رأسها قائلة : احمدك يارب واشكر فضلك .

وهذا أعرفه .. إنه الاستاذ ملاك مدرس الانجليزى ، أما الذى الى جواره .. الذى الى جواره .. لا أعرفه .. أظننى رأيته من قبل .. بقى طويلا يحدق فيه دون أن يساعده صاحب الوجه .. هاتان العينان العميقتان السوداوان والجبهة العريضة لا أنساها أبدا .. لابد أنى

أعرفه . أغمض عينيه .. كاد يغيب عن الوعى ، وبدا أنه بذل جهدا كبيرا لكى يتعرف على المحيطين بالفراش .. حين فتح عينيه انتقل بهما الى شخص آخر .. لم يكن عسيرا عليه .. كان زيه الرسمى وشاربه يعلنان له أنه النقيب سليمان الملط . لكن شاربه الكث تضخم . وأصبح شجرة هائلة تغطى نصف وجهه وتمتد فروعها خارجه . طاف بوجهه شبح ابتسامة .. قال له الضابط ..

– ما رأيك فيه الآن .. أكبر شارب فى مصر

ظهرت الابتسامة على وجه شريف وهز رأسه .. فاستطرد سليمان :

– يكلفنى شهريا ما يزيد على أربعين جنيها .

هربت الابتسامة الوليدة .. وحاول سليمان أن يعيدها فقال له :

– سوف تأتى معى الى اسكتلندا فى الصيف .. هناك مسابقة عالمية للشوارب . سوف امثل مصر .. لن تكون لك حجة .. سيأتى معنا وفد رسمى .. وسوف يكون منير البدرى معنا .. هيا .. استعد .. الأجانب الذين رأوه يؤكدون أنى سأعود بالجائزة الأولى بصفتى صاحب أكبر شارب فى العالم .

عادت الابتسامة الى الوجه المعتم ، ورضى الجميع عن حديث سليمان فاستأنف عزفه المنفرد .

لا يمكنك أن تتصور ما هى الجائزة .

نظر البعض إلى المستمع المسكين . على أمل أن يرد ، لكنه كان ينتظر ..

فقال سليمان :

– شارب من الذهب الخالص بحجم شاربى .

اندفع منير يسأله :

– فى حجمه أم فى وزنه .

ضحك الجميع حتى أليفة والشباب الأخضر .. نظروا الى شريف الذى كان ينتزع ابتسامة من بين أعصاب محطمة وروح غائبة .. تذكر سليمان أن « واوا » هرب من السجن وكاد يقول لشريف لكنه أدرك بسرعة أن الخبر كفيل بالقضاء عليه . لحق بلسانه المندفع فى آخر لحظة .

انتقلت عينا شريف إلى شاب طويل ورشيق ، مضئ الوجه والعينين بالصبا والحيوية .. لم يعرفه .. تحول إلى الشاب التالى .. لم يعرفه فانتقل إلى الثالث .. كان فتى قصيرا نسبيا .. تأمله ووقف عند الشامة الكبيرة التى تستقر على جانب ذقنه الأيسر .. وحين وقعت عيناه على نصف رأسه الأبيض تذكر الشباب الثلاثة دفعة واحدة ، وراح ينقل نظراته بينهم – هذا تامر وطارق وهشام .. إنهم تلاميذى .. ولا يزال السؤال يفتش عن إجابة .. لماذا يغزو المشيب بكل جحافله شعر تامر .. الشيب مسحوق الزمن المعتق .

قال تامر الذى لم يبدأ اللعب مع الزمن بعد :

– حصل حضرة الناظر على موافقة الوزارة على رحلة السد العالى ياأستاذ .

ابتسم شريف بدرجة يمكن أن تترجم فى الأحوال العادية إلى قهقهة ، وهز رأسه سعيدا .. واستطرد تامر :

– شد حيلك كى تراه معنا ونزور بحيرة ناصر « وأبو سمبل » ،
قال منير :

– رغم كل ما تدخره من خيرات ، فلا يزال هناك من يحرص على عدم الاستفادة منها ..

وصلت الممرضة وهنأته بالسلامة وجاء الطبيب واخترق السور البشرى .. وضع يده على رأس شريف وهو يهنئه بالسلامة .. جس النبض ومط شفتيه .. لم تمض لحظات حتى وصل وكيل النيابة .. دخل العسكرى وهمس فى أذن الجميع . خرجوا ماعدا الضابط وبدأ التحقيق مع شريف بعد أن أصبح وحيدا .

شرد .. راح عقله المجهد يدور بسرعة كعجلات سيارة تغوص فى الوحل .. تدور بلا جدوى .. أشياء كثيرة حدثت لكنه لا يستطيع أن يحددها بوضوح أو يرتبها .. كلها وقعت فوق بعضها كبيت منهار .. تداعى فجأة وتداخلت طوابقه ولم يعد هناك من يستطيع تمييز طابق عن طابق .. بدت له بعض الأحداث كأنها لم تحدث وأنها كانت من بنات أحلامه ، وبعضهـــا يبدو كما لو كانت مجرد أفكار سوداء وكوابيس يقظة . أو أوهام وبعضها بالطبع حدث .. لم يجد فى ذهنه القدرة على أن يخلص هذه من تلك ؟ فهل يلقى كل ما فى سلته أمام وكيل النيابة ؟ لو فعل ذلك لأمر وكيل النيابة بإيداعه مستشفى الأمراض العقلية على الفور ومضاعفة الحراسة عليه .

ما الذى حدث ؟ ..ما الذى يحدث ؟ .. وما الذى يمكن ان يحدث؟ ولماذا جاء هنا وكيل النيابة ؟ وماذا يريد ؟

ابتسم فى مرارة .. لقد أصبح هو نفسه وكيلا للنيابة ، يحقق مع نفسه تحقيقا شخصيا آخر .. تحقيق ما قبل التحقيق .

أريحوا أنفسكم .. أنا لا أستطيع أن أجيب لا على هذا ولا على ذاك .. أغمض عينيه .. لاحظ الطبيب ذلك ، فأمسك برسغه وقاس نبضه .. طلب من الممرضة أن تركب له الجلوكوز بسرعة وتطلب له طعاما مسلوقا وساخنا .

فتح شريف عينيه وتنهد .. نطق بعض الحروف التى تعنى أنه لا يقدر على الكلام .. كان واضحا أنه يلتقط أنفاسه بصعوبة .

طلب الطبيب من وكيل النيابة تأجيل التحقيق إلى الغد حتى يتسنى له استعادة صحته ، والغذاء بالقطع سيساعد على تنشيط ذاكرته .

وافق الوكيل على مضض لأنها المرة الثالثة التى يجيىء فيها . وفى المرة الأخيرة بالذات جاء بعد مكالمة الضابط والطبيب .

خرج الوكيل بعد أن حذر الشرطى من الانشغال عنه لحظة .. وحذره أيضا النقيب سليمان الملط :

- هناك عصابة سوف تقتل المصاب .

أجابه العسكرى كأنه فى حصة مطالعة :

- لا تشغل بالك يافندم .. لو كانت عصبة الأمم كلها لن يلمسوا شعرة فى رأسه .

وسرعان ما قال العسكرى لنفسه : نهار اغبر عصـــابة مرة واحدة .. الله يسامحه الذى كان السبب .

بعد أن خرج الجميع فوجئ شريف بوجه أحد الذين زاروه ولم

يعرفه يرتسم أمامه .. حدق فى عينيه وسرعان ما عثر على شخصية صاحبه .. إنه عبد الرحمن شـــمعة زميله مدرس العلوم ولكنه بدون لحية .. كيف لم يعرفه وهو الصديق العزيز لمجرد أن حلق لحيته .. لقد كان دائما إلى جواره دون أن يدعوه وكان نعم المؤنس والمعين .. لطالما وجد لديه راحته وأمنه وثقته فى الله وفى الناس .



(٣)

حاول ان يعرف مكانهم لينتقم ، ولكنه للأسف ذهب معصوب العينين وعاد جريا فى الظلام يضرب فى بيداء صخرية متسقة مع كل شيء .. تعثر فى نتوءاتها عدة مرات .. إلا أنه كان ينهض بحثا عن أى ابتعاد او أى حياة غير حياة هم فيها .. ظل معلقا بأرجوحة وعيه لحظات إلى أن تمزقت الخيوط الواهنة فسقط فى مستنقع الغياب قريبا من تخوم النهاية .

ألحت عليه أخته كى تبقى معه ، لكنه أبى .. كان يعرف أنها أصبحت هى المسئولة عن محل العطارة ، بعد أن توسعت تجارة زوجها نجيب فرح وأصبح مضطرا لمتابعة صفقاته مع عملائه فى السعودية واليمن وتونس والمغرب .

كان يريد أن يكون وحيدا فى بيته الذى غاب عنه أسبوعا كاملا ولا بد أن يستمتع بهذه الحرية اليتيمة .. وهو يتمرغ فى رماد الذكريات كحمار لا يقدر على حك ظهره .. كان عليه أن يكون وحيدا بعمق غير عادى حتى تتأكد قناعته بأنه تخلص من هذا العالم .

– تركت لك الطعام فى المطبخ .. أرجوك أن تهتم بصحتك .. لن ينفعك فى الدنيا غيرها .

هز رأسه واعدا أن يفعل .

أسرعت إلى محل العطارة الذى يجاور سبيل أم عباس .. المحل الصغير الذى بدأ زوجها منه - بعد أن ورثه عن والده - رحلة حياته التجارية .. انطلق الحاج نجيب .. موهوبا فى عالم التجارة حتى لم يعد يعرف أحدا ولا يفرغ لشىء ولا حتى لبيته .. وكان على أليفة أن تتخلى عن بيتهاوتنزل الى المحل .. وسرعان ما كشفت هى الأخرى عن مهارة غير عادية فى استثمار وقتها وأموالها ، حتى أنها لم تقم بزيارة أخيها فى العام الأخير مرة واحدة ، وهو الذى قام بزيارتها منذ شهر .

هز رأسه كأنه يشفق على حالها .

- تغيرت تماما .

استطرد .

- ومن الذى لم يتغير !

اشعل سيجارة ثم تثاءب .. هل بعد كل هذا النوم فى المستشفى يتثاءب طافت نظراته بما حوله .. ما الذى جرى للبيت ؟

بيته الحبيب .. كل لحظة فيه تجذبه إليها .. كل قطعة أثاث .. كل سنتيمتر من الأرض .. من الجدران .. الصور والذكريات .. كلها تحدق فيه وتستقبله وتسأله وتذكّره .. تساعده على أن يتعرف عليها إذا كان قد نسى بفعل ماجرى .. اشتاقت اليه .. إلى نظراته الحانية الوادعة .. كل ما فى البيت ينتظر دوره كى يهنأ بنظرة ودية .. بدا على كل شىء أنه جف فى غيابه وتشقق .. وحان موعد السقيا واللمس الجميل ..

أخذ أنفاسا عميقة ومتلاحقة من سيجارة تتعجل الانتهاء ، ثم دفنها فى المنفضة بعصبية .

كانت سجائره تدفعه أمامها محتضنا أفكاره الباردة .. وتأخذ بيده من ذكرى الى ذكرى بينما يقبع الزمن فى ركن معتم .. تبرق عيناه ولا تهتز فيه شعرة ككلب ضربه صاحبه بقسوة .. لكنه لم يفكر أبدا فى الهرب . مع أنه ليس عاجزا عن الدوران حول الكون كله .

نهض وتمشى صوب صورة كبيرة تجمعه مع أمه وأبيه وعزم على أن ينزل الى قبرهما فى مسقط النور ويقرأ لهما الفاتحة .. تساءل : هل يمكن أن يعود من جديد عهد الآباء .. كان على ثقة أن هذا الجيل بالذات من الآباء الذين ولدوا فى الربع الأول من القرن العشرين جيل غير عادى .. فى الكفاح والعطاء وتحمل المسئولية .. ثم تحول الى الصورة الكبيرة التى تتصدر الردهة .. حيث تطل سلوى بملامحها الباسمة . تتألق بالجمال والرضا .. تُقَبِّل بطة صغيرة وفوق صدرها يصعد البط الصغير الأصفر .. يتشبث فى الفستان الأحمر بأظافره الطرية .. بعض البطات لا تزال تحت الثديين وبعضها صعد ووقف على الكتفين وشرع يتلفت واثقا من قمته .

الصورة المبتهجة تشع حنانا على الصمت البائس وُتقلِّب ذكرياته.

هذه صورة واحدة من بين آلاف الصور التى التقطها ، لكنها ذات تقدير خاص واهتمام .. هناك الصور التى التقطها لسلوى فى الهرم وفى مزرعة الأستاذ مفرح عديله والتى التقطها فى حديقة الأسماك وفى ميدان صلاح الدين هنا أمام المنزل وعلى شاطىء المنتزه بالاسكندرية وفى الأقصر .. صور كثيرة أظهرت معظمها براعته فى التصوير ، لكنه فى هذه الصورة لم يهتم بالتشكيل فى الاضاءة والوقفة والابتسامة ووضع الرأس والخلفية .. كل همه انصب فى مادة

. سلوى الحبيبة وهذا البط الصغير الذى لم يتجاوز عمره
فى أحضانها وهام بها منذ خرج من البيضة .. حتي
خطواتها وهى تصعد إليه فوق السطوح وتفتح
ويقبل ما يعثر عليه منها .

تأمل طويلا سلواه .. لم ينظر الى هذه الصورة
والامل .. فما هو شعوره الآن بعد ما جرى ؟ هل
لا ... توحى بشىء .. أى شىء ؟؟

تحول الى الجانب الآخر حيث كانت صورة عبد الناصر الرجل الذى أحبه كما لم يحب انسانا قط .. مستحيل .. لم يجد الصورة .. غير معقول أن تكون قد سرقت .. دار حول نفسه .. فتش الحجرات ليطمئن على أن شيئا آخر لم يسرق .. كل شىء كان فى موضعه .. أعاد التنقيب عن الصورة .. غريبة أن تختفي هذه الصورة التى لا أظن أنها تعنى أحدا أم أن هناك خطة لنزعه من قلبى .. وهل نزع الصورة يحقق ذلك ؟ .. لقد كان فى الصورة منشغلا عن الجميع بعد رحيله بلعب الشطرنج منصرفا بكل فكره وأعصابه إليه .. كم أود الآن أن ألعب دورا .. لابد أن أجد الصورة .. حان أن تجمعنى معه مباراة .. أصبحت مثله وحيدا فى عزلتى أتأمل الناس والأقدار وأحصى الخسائر.

طالت وقفته فى حجرة النوم وقد تصور أن هناك من يهمس فى أذنه : أنا هنا . أصاخ السمع ـ أنا هنا .. تحت السرير .

لم يصدق أذنيه ولكنه ساير أحلام يقظته التى تتولى شئونه أغلب أيامه الاخيرة .. أطل تحت السرير .. ألفى الصورة والزعيم فيها يفكر فى الحركة الصعبة التى يستعد لها ..

تأثر لوضعه .. صحيح البيت بيته وكل موضع يريحه له مطلق الحرية أن يسعى إليه ولكنه ولا شك توجس شرا فاختبأ .. لابد أنه علم بما فعلوه معى ففضل أن يبتعد عن طريقهم .. تأمله لحظات .. خالجه شعور بالإشفاق .. أعاد الصورة إلى مكانها على الحائط الأيسر من الصالة واطمأن على تثبيتها جيدا .

كانت سلوى تقول : أحب رجولته وصوته الرنان مع مسحة من شجن وعينيه الســـــوداوين .. نعم .. فى عينيه كل الجمال الحسى والمعنوى .. جلس منهمكا على الكرســـى وعاد يرنو لسلواه والبط الصغير .. وفجأة هب واقفا .

أسرع خارجا من الشقة وصعد إلى السطح .. فتح باب السطح ولم يخط غير خطوة واحدة ثم تسمر مذهولا بعد أن وقعت نظراته على المشهد الصعب .. الأوز الكبير .. قطع الثلج الفرحان الذى كان يملأ السطح بزغاريده هو الآن جثث .. نهايات صغيرة تعسة مكومة بعضها فوق بعض .. البط الذى كان يتمشى فى ثقة ودلال .. ورأسه تسبقه لتتأرجح على عنق رشيق .. هو الآن جثث ..نهايات سوداء مكومة كتلال صغيرة من الظلمة ...الدجاج الذى كان يتقافز فوق الحب ويعتلى الأسوار ويعدو فوق أغصان الرشاقة ويطير ليتعلق بأحبال الغسيل ، ثم يبحث عن موضع عطائه فيتخلص من البيضة التى تثقل مؤخرته ولابد أن تنزل حتى لو فى حضرة الملك وعلى كرسى العرش ذاته .. الدجاجات الآن جثث .. وإلى جوارها الديوك كأنها تحرسها حتى فى الحياة الأخرى ، انطفأت الألوان الزاهية وخرست الهتافات القلبية المدوية واستسلمت مع صبرها الطويل ـ للجوع والظمأ .. هى الآن جثث

تتساءل - لماذا جعل الله مصيرها بأيدى البشر ؟ .. لماذا لم تعش فى الغابة .. سوف يكون للجوع طعم آخر وسلوك آخر .

تقدم شريف ينقل الخطو بين ضحايا غيابه المفاجىء والأرض مفروشة بالسكاكين وقلبه هو الذى يمشى عليها ويتمزق .. فتح عشة الأرانب .. طلعت عليه رائحة الموت القديم .. أمسكت به .. وهزته بعنف

الأرانب الصغيرة البيضاء .. خمسة عشر أرنبا كانت صغيرة وجميلة .. ناعمة الشعر .. خفيفة الحركة .. يسعد اليائس أن يرى فمها المنمنم وهو يأكل فى دأب واهتمام .. آه يا خسارة . ثم وقعت عيناه على الأم الكبيرة راقدة وإلى جوارها عشرة أرانب صغيرة .. ليست غير قطع من اللحم الأزرق .. ولدتها وكان يخامرها الأمل أن تنطلق فى الحياة مع أخوتها الكبار .

لكن الجميع الآن .. جثث .. نهايات ..

جلس صامتا منكس الرأس .. هل يأسى لمن ماتوا أم يأسى لنفسه ؟ .. أم يندم .. أم يفكر فى شىء آخر .. لم تصدر عنه حركة .. كان متسقا تماما مع معالم المكان ...

كان واضحا أنه يشعر بالاضطراب لأنه لا يجيد أى طقس من طقوس هذا الاحتفال المتعفن .. بينما كان يعيش آخر يوم فى مأساة كاملة دامت نحو شهرين ونصف .. وقد أوشك أن ينهض مودعا القاعة التى عقدت بها جلسة أحزانه الختامية والتى أقيمت على شرفه وحده ، فهو وحده الجــدير بحضور مثل هذا الاجتماع البليغ ، بينما هو يستعدّ ليرحــل عن الاجتماع الذى انتهى دون توصيــات إلا وداعا أيتها الحياة .

تناهى إلى سمعه رفيف أجنحة ترقص فى الفضاء ساعية نحوه إنه الحمام صديقه الحبيب .. أين كان ساعة اقتحم الجوع والظمأ والغربة أجساد أخواته ..؟ أين كان حين كانت الطيور مستسلمة للموت الذى اخترمها دون أن يتمهل أو يتصل بذويها .. لعله كان يبحث عن الماء بعد أن نفد من السطح ويحمله بمناقيره كعادته ليسقى أفراخه .. قطرة .. قطرة .. بالصبر وبحبه وحنانه وطاقته على العطاء .. آن أن يكون للانسان أجنحة حتى يطير فرارا من بعض ما يحيق به .

حوله تجمع الحمام كله .. مد إليه يديه وبعض قلبه .. رويدا رويدا .. نبت هديل الحمام ..حكى له ما حدث فى غيابه ولامه على النسيان .. تأمل الحمام الأبيض والفضى .. والبنى المتسلل فى الاسود والابيض .. تأمل الرقاب البراقة والعيون الصافية والنظرات المندهشة والمشى الراقص .

كان قدوم الحمام الآن كفيلا بأن يضيف الى الصورة المنطفئة طاقة صغيرة فى الركن يتسلل منها شعاع رفيع وشاحب .. ها هنا تعود أن يتمدد على الأرض والحمام فوقه يرفرف ، وحواليه يحط .. تساءل .. كيف يمكن أن تعود للسطح بهجته ؟. وكيف نزيح عنه هذا الركام ؟ رماد البراءة المحترقة .. تنهد وتذكر مدرسته وتلاميذه وشمعة وجماعته ... اشتاق للتلاميذ والرحلة التى وعدهم بها ، جمع أعضاءه المتناثرة ونهض .. تطلع الى الافق الممتد .. استقبله مسجدا الرفاعى والسلطان حسن ثم تحول الى القلعة الشامخة .. تأملها بنظرة أسيانة .. فوجىء بقبابها وقد أصبحت متغضنة .. تتسلل الشقوق تحت خوذاتها اللامعة .

عصر اليوم التالى :

ذهب يبحث عن شمعة .. كان مستعدا أن يمضى فى أى طريق يمكنه من الانتقام لا من الباشا ولا واوا .. فلا معنى لهذا الانتقام .. المسألة أكبر وأعمق ..

لابد أن تمتد الأيدى وتلتحم القلوب المحتشدة بالغضب .. لم يجد شمعة ، أنبأه أحد أصدقـــائه المقربين أنهم قبضوا على شمعة فى الفجر .. مضى على غير هدى .. تحمله قدماه من شارع إلى شارع .. يتحدث إلى نفسه عازما على البحث عن شمعة .. أى شمعة ..

ودائما كانت هناك سلوى .. أمامه وفوق رأسه تطوف به كطائر يحاول أن يسكنه .

ودائما كان هناك شريط أحداث الشهرين الأخيرين يدور حوله ويطعنه .. صورة بعد صورة منذ احتفى بعيد زواجه السابع .

★ ★ ★

(٣)

صـــحا من نومه . وجدها قد أدارت الغسالة وجلســـت أمام التليفزيون تتفرج على برامج الأطفال « مشـــدودة » الى أفلام الرسوم المتحركة والحيوانات .. فيلم « العصـــفورة الســـحرية » أعقبه فيلـــم « الأميرة والجوهرة الضائعة » ثم فيلم « الكلبة لولو » .

أعدت له قهوته الوحيدة على عجل وهى تخطف النظرات الى الجهاز العجيب وعروضه الجذابة .. وضعتها أمامه . ثم عادت الى مقعدها الأثير .. لكنها رجعت إليه فجأة وقبلته قائلة :

- كل سنة وانت طيب يا حبيبى .

أجابها بنبرات لم تستيقظ بعد : وأنت طيبة .

قالت وهى تبدو فى سمت السعادة .

- أرأيت .. أنت الذى تنسى .. اليـــوم هو ١٤ يناير .. عيد زواجنا . ابتســـم وهو يقول - هذا التاريخ فقط هو الذى تذكرين :

انحنت عليه وقبلته من جديد ثم وضعت رأسها فوق رأسه قائلة : كان مفروضا بصفتك مدرس تاريخ ألا تنسى أهم يوم ..

ضحك وهو يكمل لها ما لم تقله :

- فى حياة البشرية .

سحب الجريدة التى يحضرها له أشرف ابن حسين قربة صباح كل يوم جمعة .. تعود أن يفتح دكان العصير الذى فى اسفل العمارة قبل

أبيه فقط فى أيام عطلته..طالعته فى قلب الصفحة الأولى صورة رئيس الجمهورية وهو يضحك بملء شدقيه .

ألقى بالصحيفة وذهب إلى الحمام .. اغتسل وأطل فى المرآة وأجل الحلاقة للمساء .عاد وأمسك بالصحيفة .

كانت نظراته رغما عنه تهرب من الصحيفة لا إلى التليفزيون المتحمس فى عرضه ولكن إلى سلوى التى لاتسيطر على عواطفها المرتبطة تماما بقصة خيالية تحكيها الرسوم المتحركة .

كانت فرحة جدا وهى ترى البنت الصغيرة تختبىء من المارد قبيح الوجه وسرعان ما فزعت لأنه عثر عليها وأمسكها كلها بقبضة يد واحدة .. أخذت سلوى تتلوى على كرسيها وقد علت وجهها سحابة حزن عميق حتى أن ملامحها تداخلت من الألم .. كانت تتأوه كلما تلوت البنت فى يد العملاق ..

.. ثم بكت البنت وصرخت ، وعندئذ فوجىء شريف بالدموع على خدى سلوى . تسيل فى صمت .. ورآها تدنو أكثر من التليفزيون كأنها تريد أن تخفف قبضة المارد على جسم الصغيرة الضعيف .. كاد يبكى من أجلها ثم كاد يضحك .. تحكم أخيرا فى نفسه ، فلم يضحك ولم يبك ، ولم يستطع أن يقرأ الصحيفة ، بقى مختبئا فيها ليرقب ما يجرى الى أن أنعم الله أو مؤلف القصة عليه بأن ظهر فجأة شقيقها الذى كان يبحث عنها ومعه العصا السحرية فلمس به ظهر المارد الذى اضطرب وانبثق منه ضوء شديد ، بينما كان يتلوى ، ثم خمد الضوء وهوى المارد وصفقت سلوى ومسحت بقايا دموعها .

وظهرت المذيعة مضيئة الوجه بابتسامه تسأل الأطفال :

ـ هل أعجبكم الفيلم ؟

وعدتهم بفيلم ثان بعد أن يستمعوا إلى أخبار الصغار فى انحاء العالم وتحياتهم وتهانيهم .

قال شريف : الغسالة .

هبت سلوى واقفة وقد تذكرت دنيا الناس .. أخرجت مافى الغسالة من ملابس .. عصرتها وألقت بها فى طشت بلاستيك به ماء نظيف وألقت فى بطن الغسالة دورا ثانيا من الملابس المتسخة ، ثم عادت قفزا الى كرسيها التقليدى أمام الست السمينة التى تجلس فى التليفزيون وتقرأ أسماء الأولاد الحلوين .

رن التليفون فأسرعت إليه ، لأنه يأتى فى اهتماماتها بعد التليفزيون ، وقبل أن ترد قالت لشريف للمرة الألف :

ـ أحسن شىء فعله أبوك فى حياته بناء هذا البيت وحجز التليفون .

تذكر والده الذى حجز التليفون منذ عشرين سنة ولم يركب إلا بعد وفاته بيوم .. تحول إلى صورته مع أمه وقد رحلا معا فى العام قبل الماضى لقد دفعته أمه لأن يبنى هذا البيت ليكون لها سطح خصوصى تربى فيه الطيور .

.. أخذت سلوى التليفون ووضعته فى حجرها وتابعت بعينيها فيلم الرسوم المتحركة .

لما طال الحديث التليفونى والغسالة لا تزال تعمل بإخلاص بعد أن فسد منظم الوقت وتنتظر يدا تمتد اليها لتوقفها .. أشار اليها .. كتمت السماعة بيدها وقالت له : اقفلها .

سألها : هل نسيت أن أباك مدعو للغداء معنا اليوم ؟

قالت على الفور : أنزل اشتر اللحم .

فوجىء بردها وبالموقف الذى سيكون عليه .. تلفت حوله كمن يبحث عن شىء يلقيه عليها .. اختبأت من ذعره فى الحديث مع زميلتها ، واثقة من أنه لن يفعل شيئا طالما هناك أخرى على الطرف الآخر .. منع نفسه من الثورة التى تليق بها .. ليس احتراما لزميلتها ولكن خوفا من إفساد عيد زواجهما الذى تقدسه ، والحرص على جو المودة قبل زيارة أبويها ، قال فى نفسه : هذا عيب العلاقة الحسنة مع والد الزوجة .. كتم غيظه مؤقتا وسألها :

ـ ألم نتفق على أن تشترى أنت اللحم منذ أول أمس ؟

سمعته فكتمت نفس زميلتها وقالت :

ـ نسيت .

رفع رأسه إلى السقف وخاطب ربه دون أن يسمعه أحد ولكنها كانت تعرف ماذا يقول ، فقد عودها أن يشكو إلى الله إذا لم يستطع أن يغضب .. وتقريبا هو لم يستطع أن يغضب منذ تزوجها .. وهذا الغضب الممنوع من التنفيذ يبدأ فى صورة مشروع ضخم ونية مؤكدة لتحطيم العالم لأن هذه السيدة خلقت من مادة خاصة بها وحدها هى النسيان .. ثم يتضاءل الغضب ويتضاءل حتى يتلاشى ويصبح مجرد عتاب ناعم ومضحك يرسله الى الله الذى يتسع صدره للكثير :

ـ لماذا يارب اخترت لى هذه السيدة .. دون كل نساء الأرض .. العالم ممتلىء بالسيدات الجميلات من ذوات الذاكرة فلماذا هذه بالذات

يتحول غضبه الى عتاب كوميدى يثير ضحكها ولا يؤثر فى تعديل تركيبتها الربانية .. امرأة بلا ذاكرة .. بل يمكن القول إن لها ذاكرة لا تحوى إلا برامج التليفزيون وأفلامه وسير حياة الممثلين .

لاحظ شريف أن الله لا يستجيب لشكواه..وهو لا يدرى ما السبب فى عدم الاستجابة .. كان فى البداية يعزى ذلك لأنه يشكوها له ربما وهوغير طاهر وربما لأن الله يدرك أنه غير جاد فى مظلمته .. لكنه بعد سنوات اقتنع أن الله لا يريد أن يعبث فى مخلوقاته بعد أن أعدهم بهذا الشكل ووزع عليهم عيوبهم ومزاياهم المتباينة ، بحيث تكون عالما من الناقصين يحتاج فيه كل فرد للآخر ، وما دام الله ، قد قرر ذلك فسوف يظل الأمركذلك .

اقتنع شريف نفسه بعد مرور سنوات طويلة من عمره كافية لمنحه وعيابحركة الخلق وأسرار التشكيل الربانى - أن خطورة نسيانها مهما كانت نتائجه فهو عيب أقل من عيوب أخرى قاتلة تعرف عليها وصادفها فى نساء أخريات يتفنن بهذه الصفات فى خلق الأجواء التعسة وزرع نباتات مملة وسخيفة فى حقل الحياة الزوجية .

إنها تنسى ما تبيت تحلم به ، وتنسى كل ما يغريها به زميلاتها واعلانات التليفزيون التى تستفز - بلا رحمة - الفضول والغيرة .. تفكر فيه وقتها وتدهش وتتمنى ..ثم تنسى .

دخل عليها مرة فوجدها أمام التليفزيون ترقص لأن راقصة كانت فى التليفزيون ترقص .. وتركها فيما هى فيه ومضى يفتش عن بيوت العنكبوت التى أمرها فى الصباح أن تهدمها .. فوجدها كما هى فى

ركن الصالة وفوق ستارة المطبخ وباب حجرة النوم عندئذ لمحت غضبه يولد فقالت له ..

- باقى عشر دقائق وينتهى الفيلم وسأهدم لك كل بيوته .

رفع يديه فى اتجاه السقف وبكل خشوع قال :

- لماذ ا يا رب من دون كل نساء الأرض زوجتنى هذه السيدة .. التى ..

قاطعته وكأنها تخشى أن يفضح عيوبها لله .

- شريف .. قلت لك عشر دقائق .

لم يكن عتابه لله إلا إعلانا عن عدم رضاه ، إعلانا متفقا عليه تفهم منه مؤقتا ماذا يريد ؟ وهى تعمل بكل وسيلة كى تنفذ له ما يريد لأن قلبها عامر به تماما وهى متغلغلة فى قلبه.. طائران وحيدان جميلان يحلقان معا بسعادة فى هذا العالم الرحب .. طائران يرفرفان معا ويبتسمان معا ويفكران معا ويحتضنان الأحلام معا ، ولكنهما لا يلعبان الشطرنج معا .. ويتوجه شريف بالشكوى لله .

- لماذا يا رب من دون كل نساء الأرض زوجتنى هذه السيدة التى لا تلعب الشطرنج .

انتهت مكالمتها مع زميلتها ودنت منه :

- فكرت بدلا من الطبيخ والتسبيك نعمل كفتة على السيخ ونجلس فوق السطح . مارأيك ؟

سألها بصبر نافد : ولماذا لم تشتر اللحم ؟

ردّت هى الأخرى بصبر نافد - نسيت .

ثم قالت بهدوء : بعد أن تصلى الجمعة اشتر اللحم وعندنا ما يكفى من الفحم ولا تنس السلطة .. أنت تعرف .

أسرع يقول : أبوك يحبها .

صرخ فيهما فجأة جرس الباب .. مضت الى الباب ففتحته وفرقعت القبل مع والدها ووالدتها .

قال عم فريد السخن

ـ أنت لا تزال هنا .

تقدم شريف ليلقاه : أهلا ياعمى .

سلم عم فريد مامعه لا بنته وهو يقول .

ـ ناموسيتك كحلى .. لقد بدأ القرآن .

أجابه شريف على عجل ..

ـ أنت .. داخل سخن ياعم فريد .

تضاحكا ..

قال فريد : أنا لست مستعدا لك الآن .. صبرك على .. هيا لنلحق سيدك الرفاعى .

جلس عم فريد ففزع الكرسى حين هبط فيه الجسد الضخم وضاقت عليه الدنيا .. حاول أن يضع ساقا على ساق لم يفلح .. قال : لا أستطيع أن أكون عظيما فى بيتكم .

مضى شريف من فوره ليتوضأ .. وتسلمت الأفكار رأسه بينما يداه تشكلان بالماء طقوس الوضوء .

كان فى حيرة حقيقية من أمر صلاته ، لماذا يصلى كثير من الناس ومن كافة الاعمار أما هو فلا يستطيع !.. منذ سنوات وهو يتعثر فى أدائه للصلاة .. فى الماضى كان أبوه يوصيه بالصلاة كى ينجح ، فيصلى باهتمام ويذاكر بعنف قبل الامتحان وبعدما ينجح ينسى الصلاة ولا يعود إليها إلا قبل امتحان العام التالى بأسبوعين ثم ينجح ويهملها ، ويعلق أبوه قائلا .. .

صلى وصام لأمر كان يطلبه ، فلما انتهى الأمر لا صلى ولا صاما .

بعد أن تزوج وأحاطت به الظروف الصعبة قرر أن يصلى فغير مستبعد أن يكون ما جرى له غضبا من الله ، ولابد أن يعود إليه ويبدى الطاعة الكاملة .

ـ أنت تعلم يا رب أننى عبدك المطيع الذى لا يفعل ما يغضبك .. فلماذا أجد صعوبة فى الصلاة خمس مرات يوميا ولماذا لم تشجع نبينا محمدا كى يطلب منك أن تكون مرتين فقط صباحا ومساء .. أنت يا رب تستطيع أن تقلب الدنيا رأسا على عقب .. أنت تستطيع أن تدمرها أو تغرقها فى العسل ، لماذا لا تجذبنى إليها ولماذا لاتجذبها إلى ؟! أنت الذى تدفع الناس إلى حب أشياء كثيرة ، وأنت الذى تجعلها علىَّ ثقيلة وتستطيع طبعا أن تجعلها علىَّ خفيفة.

ساعدنى يا رب كى أصلى .. ساعدنى كى أكتمل .. أرجوك احسم المسألة .. أنا غير راض عن نفسى ومعترف بذنبى .. وأنا أقولها لك بكل جرأة مصدرها ثقتى فى عدلك .. إما أن تساعدنى عليها

وتجعلها حبيبة إلى نفسى مثل سلوى أو تعدنى ألا تحاسبنى عليها يوم القيامة .. ربى .. كيف أعرف أننا اتفقنا .. أظهر لى آية من آياتك أو علامة من علاماتك كى أعرف .. وأكون شاكرا لو أرسلت لى ملاكا يقول لى كلاما محددا .. آه .. فهمت .. أنا لست موسى ولا ابراهيم ولا أحدا من الصفوة .

كان قد بدأ يصلى بانتظام طوال أيام الاسبوع .. ينتظر الصلاة بعد الصلاة .. يتوضأ ثم يترقب الآذان .. ثم يذهب الى مسجد الرفاعى أو السلطان حسن .. ويؤدى الصلاة جماعة لينال ثواب الجماعة الذى يساوى مثل صلاة الفرد سبعا وعشرين مرة .

وتخلى أيضا وبصعوبة عن هوايته الأثيرة اذا سار فى الشارع وهى التطلع الى مؤخرات النساء .. كان يتأمل ويقيم ويقارن ويسمح لنفسه بأن يتنبأ بمستقبل هذه وتلك .. مضت به هذه الهواية أو النزوة الى مدى بعيد الى درجة أن اصبحت عادة وله فيها آراء سرية رهيبة ، حتى لقد فكر فى إحدى المرات المجنونة أن يسجلها فى كتاب يخدم به الثقافة .. ورغم ذلك فقد كان على يقين من أن الله خلق المؤخرات لتدمير الرجال والنساء معا « بصنعة لطافة » ودون أن يحسوا هم أنفسهم بذلك مستسلمين للإغراء الجميل..

كان يدمن هذا التحديق وهو يعلم أنه يخوض فى أرض حرام . لكن قوة غريبة لابد يدفع لها الشيطان أتعابها كانت تدفعه إلى هذا الشرك ..

مع ذلك مرت الأيام دون أن تحمل له صباحاتها المصرة على الطلوع الخبر الذى ينتظره .. ولى العهد .

تسلل السأم إلى نفسه وأصبح يصلى فى البيت ، ثم أصبح يسهو حتى يلحق الظهر بالعصر ، ثم أمسى يسهو عنها حتى يلحق بهما المغرب ، فيصلى دون إيمان كاف أو تركيز .. وأحيانا دون وضوء وهو يحسب أنه على طهارته فى حين يكون قد أخرج من الريح ما يكفى لدفع زورق شراعى .

ثم تآكلت الصلوات واستقرت شهورا على يوم الجمعة فقط ، تلك الشجرة الوحيدة فى صحراء إيمانه القاحلة .

أخيرا وعن عمد أو عن غير عمد تشاغل عن اليوم الوحيد المقدس .. فهو مرة فى رحلة مع زوجته ، أو مشغول مع ضيف لا تعنيه الجمعة ولا يحرص عليها ، أو نائم بعد سهرة امتدت حتى منابع الفجر .. وربما يستولى عليه دور شطرنج مع منير البدرى .. وهكذا أسدل الستار على فترة تاريخية فى حياته كان يمكن مع الدأب والمثابرة ومواجهة الشيطان بحزم أن يقيم صرحا روحيا شامخا .

عاد من وضوئه وسمع حماته تقول :

- اليوم عيد زواجهما يا فريد .

ضحك عم فريد ضحكته البقرية التى تغترف من كرشه الضخم قائلا :

- صباحية مباركة يا عريس .

ضحك شريف وهو يطل فى وجه عم فريد .. كان يدهش لليونة أطرافه وبياض وجهه وخديه الكبيرين المدورين .. ملامح امرأة جميلة لولا الصلع ..

أخرج عم فريد من جيبه راديو صغيرا وبحث .. عن محطة القرآن الكريم .. كان يرتدى نفس معطف عمله بالسكة الحديد الذى لا يفارقه الا عندما يدخل فراشه .. فى هذا المعطف تقريبا كل ما يلزم رحالة ينوى الدوران حول الكرة الأرضية ... فيه الراديو والمشط ومفكرة بالمواعيد وأرقام التليفونات ، دفتر ايصالات للمخالفين من الركاب البطاقة العائلية ، وبطاقة التموين فقد يمر فى طريقه بأى جمعية تعاونية توزع سلعا نادرة ، وفيه أيضا بطاقات عضوية نادى السكة الحديد ومستشفى السكة الحديد ، والنقابة وصور الأولاد جميعا .. بوصلة يحدد بها مواعيد الصلاة وأماكن لا يعرف قبلتها . سلسلة مفاتيح تضم أكثر من عشرة مفاتيح بالاضافة الى سلسلة ثانية فيها مجموعة من الأدوات الصغيرة سكينة . شوكة . فتاحة زجاجات . ملعقة . قصافة للأظافر . فى المعطف أيضا : قلم جاف وكوتشينة علبة كبريت ، وعلبتا سجائر وعلبة نشوق وبطارية تضىء له فى حالة التفتيش فى الليل . زجاجة قطرة للعين وأدوية للصداع والمغص الكلوى ونظارة شمسية وزوج من الجوارب وزوج من المناديل لزوم المسافات البعيدة ، والخطاب الوحيد الذى تسلمه من ابنه « أصيل » بعد غياب خمس سنوات فى كندا .. خطاب لا يفارقه كل يوم تقريبا يقرؤه ليتذكر أن ولده فعلا -كما قال - أصبح المستشار النووى لاكبر مصانعها ومر على الخطاب الآن سنتان .. وكيف يفارق هذا الخطاب الذى أرسله ولده الباقى بعد استشهاد ابنه الاكبر « منتصر » فى حرب ١٩٧٣.

عم فريد طوب الأرض يحبه لأنه لايكف عن قول النكتة واختراعها فى ثوان ، وكل شىء وكل انسان مهما علا شأنه يمكن أن يوحى له

بنكته ، وهو يقول النكت على الاطباء والوزراء والشعراء والفلاحين والصعايدة والطلبة والصيادين والممثلين .والحموات والراقصات والطير والحيوان وعلى الملوك والرؤساء أيضا .

كتب منير البدرى فى احدى المرات عامودا عن عم فريد دعا فيه وزارة الثقافة لتخصيص مادة عنه فى المعهد العالى للدراسات الشعبية بوصفه مثلا بارزا من الفلكلور الحديث ، ودعا أيضا الى تعيين موظف يلازمه ويسجل كل ما يقوله ، واعتبر عدم الاستجابة لاقتراحه تبديدا لثروة أصيلة من ثروات الوطن .

لبس أجمل ثيابه وتعطر ، توجه هو والعم فريد إلى المسجد .. التقيا فى الدور الثانى بمنير البدرى .. كان يغلق شقته فى عجلة .. لمحهما فعاد يسلم على عم فريد وقال :

- آسف .. طلبنى أخونا النقيب سليمان الملط ولابد ان اذهب اليه فى القسم .

★ ★ ★

(٤)

وضعت سلوى أمام أبيها لوازم السلطة وهى تقول :

- شريف تأخر.

قال عم فريد :

- ربما قبضوا على مدرسى التاريخ .

تنهدت سلوى وبدا عليها القلق .

- أكثر من ساعة ونصف .. الفرن قريب ..

- شريف كثيرا ما يشرد .. ربما وقف فى طابور وبعد أن جاء دوره اكتشف انه ليس طابور العيش .

اندفعت أم منتصر فى زوجها :

- بطل يا رجل .. البنت فى حيرة وانت تقول النكت .

- أنا لا أقول نكتا يا أم منتصر .. أنا جاد جدا .

انتهى فريد من إعداد السلطة التى يشتهر بها على مستوى عدد من العمارات حتى أنه فى شهر رمضان يحضر إليه قبل الافطار أولاد الجيران ليطلبوا سلطة عم فريد السخن فيعطى كل أسرة طبقا .. واقترحت عليه « مكاوية » أن يفتح دكانا صغيرا يتخصص فى السلطة ويمكن أن يضم أيضا المخللات .. لم يكن بحاجة الى جهد كى يقنعها - هكذا تصور - بخطأ رأيها ، لأنه يكسب من عمله مفتشا بالسكة

الحـــديد ، ويكفى أن تكون المسألة بينه وبين جيرانه مجرد محبة ووصال .. تركها تحتج فى صوت خفيض وكلمات مبهمة على طبع هذا الرجل غير المريح، مع أن يدها تتناوله فى يسر .. لكنهن النساء .. لا يكتفين بامتلاك الأرض والفضاء .

تمدد عم فريد على الأرض دون وسادة ورأسه أعلى من الأرض بنحو شبر وسرعان ما علا غطيطه . ولم تدهش زوجته ولا ابنته .. كيف يتعلق رأسه عاليا هكذا وينام !

بعد ساعتين عاد شريف كأنه مسحوب من تحت أنقاض عمارة .. الفرق الوحيد هو أنه يحمل خبزا .. السويتر الجديد الذى يلبسه لأول مرة ممزق بفعل مطواة .. ربنا سلم ولم تنفذ فى اللحم ، ياقة القميص مخلوعة ومتدلية على صدره .. البنطلون عليه بقع كبيرة والشعر أشعث وعينه اليسرى زرقاء وعلى شفته السفلى نقطتان من دم .. الخبز على كفه الأيمن بينما ذراعه الأيسر مشرع فى الهواء لأن به ما يعوق نزوله الى جانبه كباقى البشر ..كل ملامحه تنطق بالألم العميق .

صرخت سلوى وأمها فى نفس واحد ، وهب فريد من رقدته التى كان حامل الخبز المحطم يرقبها فى ذهول .

ـ ماذا جرى ؟

بشفة معوجة قال شريف : لا تفزعوا هكذا ..

لم يستطع عـم فريد أن يسيطر تمـاما على نفسه وأفلتت منه ضحكة .

قال شريف :

ـ قدر ولطف .. أنا أحسن من غيرى .

حينئذ لم يحاول عم فريد أن يمسك نفسه .. دوت ضحكته البقرية فى البيت كلــه وأم منتصــر تلكزه بــلا فائدة .. ولما انتهت بقيت لها ذيول متجددة .

قال : كل سنة وانت طيب .. الناس لابد تعرف أن اليوم عيد زواجكما .

قال شريف :

ـ الناس لها عذرها .

قال عم فريد وهو يحاول أن يكون لأول مرة جادا .

ـ طبعا الظروف صعبة .

قال شريف بحماس :

ـ الشعوب كلها تمر بظروف من هذا النوع ، وعليهم أن يصبروا لأنها غالبا تكون مؤقتة .. كل مراحل التاريخ تؤكد ذلك ... الأوضاع السيئة لا تدوم أبدا .

فعاجله فريد : ولا الحسنة .

ـ المشكلة تبدأ على يد المرتزقة عديمى الضمير الذين يتاجرون بأقوات الشعب .

وسأله عم فريد : وما دور الحكومة ؟

ترك شريف نفسه لسلوى تنزع عنه السويتر وقد آلمه ذراعه المرفوع وقال ورأسه مختفية .. تأكد أن الحكومة لن تسمح لهم بالنمو واستغلال الأزمة .. انها ولا شك تعمل فى صمت وتعد العدة .

- ما الذى يجعلك بهذه الثقة ؟

- المنطق .. ان الظروف الحالية لا تخفى على أعمى ، ولا يهملها إلا بليد الحس .

تدخلت سلوى قائلة :

- لا .. لابد أن تترك هذه الأحاديث وتغير ملابسك كلها .

قال عم فريد : لماذا لا تشترى لك الملابس الخاصة بالطوابير .. الخوذة والجاكيت الحديد .

قـال شريف : لسـنا فى حاجة إليها فنحن لا نشترى غير خمسة أرغفة .

تدخلت أم منتصر : لو لم نحضر ، لما حدث كل هذا .

انـدفـع عـم فـريـد فيها : وهـل ضرب فى اللحمة ، لقد ضرب فى الخبز .

أحس شريف أنه سيتعرض بهذا الحوار للإهانة إن لم يكن قد تعرض لها فعلا فقال : البيت نور بوجودكم .

واستطرد

- كنا نتمنى أن تكون معنا الست صحراء والأستاذ مفرح وأولادهما .

قالت أم منتصر:

- صحراء ربما تضع غدا أو بعد غد ، زوجها عزم على تسمية المولودة سلوى والمولود شريف .

قال شريف وهو ينهض لتغيير ملابسه .

ـ شعور نبيل

كان مفرح القفاص زوج ابنتها تقريبا لا يعمل أى شىء إلا الإنجاب .. ليس عليه إلا المرور على المزرعة والعقارات التى تركها أبوه يجمع إيرادها ، أما المكتبة التى فتحها أسفل عمارته فهى ليست إلا صورة نشاط وهمى .. حتى لا يتهم بأنه عاطل .. وطلب من زوجته أن تلزم بيتها .. تطهو الطعام وتنجب .. وليس لديه أى استعداد لأن يقوم على خدمة زوجته إلا أختها سلوى .. يرتاح ويثق فيها جدا .. ولا يعقل طبعا أن يكون المقصود هو سحق أعصاب سلوى وتحطيم قلبها لأنها لم ترزق بولد حتى لو كان العيب من زوجها .. فالمحبة خالصة بين الأختين.. المشكلة أنه لاينوى أن يتوقف عند حد .. يريد أن يؤسس أسرة كبيرة يكون هو عميدها ، يريد أن يكون له شعب يحكمه وجمهورية هو رئيسها، يتحكم فى مصائر أهلها حتى وهو نائم ، وياليتها تكون امبراطورية .

ولما قال مثل هذا الكلام فى مرة أمام عم فريد .. انتظر فريد برهة ثم قال :

ـ أنا ربنا أكرمنى.

فسألوه عن مظاهر هذا الكرم .

ـ اعطانى زوجين لابنتى يعيشان على الوهم .. واحد متفائل بدون سبب يقول إننا سنعيش قريبا أزهى عصورنا .. بعد مائتى سنة فقط والثانى يبحث عن أى شـعب ليحكمه .. نفسه يحكم نـــاس .. وحين لم

يصل إلى الحكم قرر الانجاب بلا نهاية ..من ستر ربنا إنه لا يريد أن يكون له أبناء من زوجات أخريات .. هو يريد كل جمهوريته من صحراء ابنتى وسوف يزوج أى أبن فور بلوغه .

عندما أعدوا كل شيء صعدوا إلى السطح .. كانوا يسكنون الدور الرابع وهو آخر دور .. الدور يضم شقتين .. وكانت الشقة المجاورة لشريف من نصيب أخته أليفة ولكنها أجرتها وسافر أصحابها إلى الكويت .

طالعهم النور الغامر والسماء الصافية والشمس الشتوية الحنون ميدان صلاح الدين يبدو بكامله تحت أعينهم ، وترتفع إلى اليسار قلعة صلاح الدين وقباب جامع محمد على وإلى اليمين قليلا مسجدا الرفاعى والسلطان حسن والى جوار المنزل مباشرة مسجد المحمودية .

دعت سلوى والديها لمشاهدة الأرنبة وأولادها .. قطع من القطن الناصع تتقلب حول الأم وتقرص بأفواهها المنمنمة أعواد البرسيم .. صورة بسيطة وناعمة للحنان والجمال .. نغمة فى سيمفونية الوجود ..

السطح كبير ويكفى جدا ليهنأ به عدد كبير من الأطفال .. لكن يبدو أن الأوان لم يحن بعد .. هذا ما خطر ببال أم منتصر .. تنهدت بأسى وتذكرت ابنتها التى على وشك أن تضع طفلها السابع خلال عشر سنوات .

انهمكت سلوى فى لف الأسياخ باللحم المفروم الذى جهزته بالبصل والتوابل ، أما شريف فكان عليه أن يشعل الفحم فى الشواية ، ويهف عليه بقطعة من الورق المقوى .. كان الفحم عنيدا يأبى أن يتأثر بكل ما أشعله شريف من نار .. أيقن شريف بخبرته أن الفحم قد شرب

ماء من أى مصدر ، والأرجح أن تكون سلوى قد تركت الفحم فى الخلاء فأغرقه المطر .. لابد أن يشتعل وإلا ضحك عليه الجميع .. لن يشفع له أنه قد عاد محطما من حرب الخبز .. عمه فريد ملك الضحك موجود ، ولديه الاستعداد لعمل مسلسل كامل من الضحك حول مهزلة اللحم المشوى على فحم لا يشتعل .. سيكون حظه سيئا للغاية .. وما هى غير لحظات حتى تنبه عم فريد لمعاناته ولمح منظره الذى ينبىء بالفشل .. وذراعه الايسر مرفوع ، والأيمن يهف وحده قليلا ثم يرتاح .. ولا نار تظهر أو دخان ، تولاه ببديهته الحاضرة ونكاته اللاذعة ، حتى لعن شريف التواطؤ المشهور بين الخوف من حدوث شىء وحتمية حدوث هذا الشىء .. تألقت قريحة عم فريد كلما رأى العرق يسيل من جبين شريف مغرقا خديه ، وهو يهوى على فحم ملعون عب من الماء ما يكفى كى يتحول الى عصير فحم .

حاولت أم منتصر أن توقف زوجها ، لكن ذلك كان أمرا مستحيلا .. كان معناه أن يسقط من طوله ميتا من الكتمة .. إنه بسبب هذه النكت يشعر أنه حصان حر طليق يجرى فى مضمار بلا نهاية والجميع يصفقون له .

تقول زوجته مكاوية : من كثرة هذا الضحك ياحبة عينى إذا وصل السرير ينام كما ينام الكلب بعد الفجر .. كأنه قتيل بعيد عنكم .

لكنها قالت وهى توشك على البكاء : تصوروا إنه يقوم بالليل ويجلس ويقول نكتة ويضحك ، ولا يعود للنوم إلا بعد أن أجرّه وأعيده إلى الفراش .

العرق أغرق بيجامة شريف .. صدره وكتفيه وظهره ، والبنطلون أيضا .. تفجرت عيون العرق على مؤخرته .

حاولت سلوى أن تأخذ المهفة من زوجها ، لكنه أبى استجابة لأوامر كرامته المهددة .. وأخيرا وبعد أن شبع فريد ضحكا وإضحاكا سقط شريف على الأرض ونظر إليهم مبتسما ، وكان هذا معناه أن الفحم أخيرا استسلم للنار التى يضرمها شريف .. وربما استجابت له رحمة به وبالجوعى المنتظرين واحتراما لليوم المشهود .

دنا عم فريد من شريف وأخرج منديله وبسطه فى الهواء وأخذ يهوى على وجه زوج ابنته المنهار .. كما يفعل مساعد المدرب مع الملاكم المتهاوى ، ثم نادى مكاوية وقال لها : تعالى انت هوى .. وأنا ، سأعد عليه من واحد إلى عشرة .. اذا لم يقم سألقيه خارج الحلبة .. ويكون فى علمكم .. السطح كله حلبة .

أغرق الجميع فى الضحك حتى الملاكم الذى لم يستطع أن يقوم ، وأعلن الحكم هزيمته وفوز أم منتصر .. وقبل أن يلتقطوا أنفاسهم قال : لو هويت بالمنديل عليك يا شريف ستشتعل .

قال شريف فى سره : يخرب بيتك .. أنت عبارة عن آلة ضحك لا تتوقف .

تراقص اللهب الذى أرهق شريف حتى اشتعل ، وتلوَّت أصابع اللحم من لسع صهده ، وسقطت دموعها قطرات من الدهن لتطفىء نار الفحم . فنفث غضبه دخانا ذا رائحة تحرك بطون كل السكان الذين يعيشون فى مساحة كيلو متر كامل ، وبدأت الحلوق تستعد ، والأمعاء

وقد بلغتها الأنباء تترقب وصول المؤن العزيزة .. لم تعد النار بحاجة إلى جهد شريف فظل مضطجعا ينتظر ..

لفت نظـــره أن جيب الحاج فريد يتقلب بما يعنى أن حركة بداخله .. ثم بـــرزت رءوس كتـــاكيت ملونة صفراء وحمراء وبنية .. ملامحها منمنمة اختفت الكتاكيت ثم أطل فأر برأسه .. تلمظ بفمه الصغير الحقير واهتزت شواربه

.. ظهرت بعد لحظات قطة تتلمظ .. دلك شريف عينيه واختفت القطة وهبط الجيب المنتفخ ..

هل هذه الصور تبدو له لأنه جوعان ؟ هذا ممكن .. أم لأنه محطم ؟ أيضا ممكن .. ولماذا لا تكون الحقيقة ؟ ممكن جدا ..

(٥)

خرجت من الحمام ترفل فى ثوب شفاف ، لم يستطع أن يخفى شيئا مما تحته ولم يكن تحته غير قطعة واحدة مشهورة ، ما عدا ذلك اللحم الأبيض المتوهج يكاد يضىء .

كان شريف قد خرج قبلها لأنه لا يقضى وقتا مثلها فى الحمام.. فالطقوس السنوية التى تضمنها احتفالهما بيوم زواجهما تقضى بأن يحلق إبطيه وذقنه وشــعر اذنيه وأنفه ، وتكون هى قد انتهت منذ الأمس .. اجــراءاتها المعقدة لنزع الزغب من جبهتها إلى أصابع قدميها ، أما اليوم فالحمام ، وعليه أن يدلك لها ظهرها حتى يصير مشتعلا بالدم، وتدلك له ظهره جيدا وتطمئن على عظامه البارزة التى يمكن عدها بالواحدة ، ثم يكمل حمامه الذى عادة ما يكون سريعا ، ويرتدى الملابس التى ارتداها فى ليلة الدخلة .. والتى لا يرتديها أبدا فى غير هذا اليوم حتى لو اتسخت كل ملابسه .. بيجامة بيضاء حريرية يدور عليها فوق مواضع الخياطة .. خط أسود رقيق .. كانت قد أهدتها له حماته ، وهى ترتدى أيضا هدية أمه .. قميص النوم الشفاف وفوقه روب من نفس القماش واللون .. ويكون كل منهما جاهزا للخلع عند أول إشارة وبلا جهد لا تتحمله الأعصاب فى الوقت الحرج .

تعود شريف فى هذا اليوم أن يطفىء جميع الأنوار ويرفع سماعة التليفون ويوقف المنبه الذى أحيانا مايرن فى أوقات فى غير مناسبة ولا ملزمة لليقظة .

لا يطفىء شريف الأنوار طبعا إلا بعد أن تتم سلوى زينتها ويكون قد أشعل الشموع ، وشرعا يتحركان فى الشقة كشبحين أو كلصين يعرفان مايجب عمله .

جلس شريف مسترخيا فى الشرفة وأشعل سيجارة .. أطلق نظراته على القاهرة الممتدة بلا نهاية . وبدون صخب ، وهذا ما جعله سعيدا ببيته الذى يقع على أعلى قمة فى القاهرة المسكونة .. القلعة .. حيث عبق التاريخ وأحداثه الجسام ومن بينها تتصاعد أنفاس العظماء، ولازال وقع خطواتهم يتردد فى أبهاء النماذج المتألقة للعمارة والحضارة الاسلامية .. أخذ شريف نفسا عميقا وأحس بالزهو .. مساكين .. وجديرون بالشفقة أبناء الشعوب الوليدة .. لأنهم بلا جذور ولا تاريخ ولا مواقف شامخة ولا فن رفيع فى الأدب والعمارة .. أما أبناء الشعوب التى تملك قدرا وفيرا من ذلك فانهم يتدللون وينامون قريرى العيون ويفشلون وهم مطمئنون إلى أنه عند المنافسة سيتلاشى الجميع أمام الميراث الحضارى الضخم .

ها هى القاهرة عملاق يخور بعد أن آب للسكون والدعة .. بحر من الهياكل المعتمة وقد طرزتها الأضواء .. السيارات تدور وراء بعضها فى الميدان بلا توقف .

هذا هو العام السابع منذ تزوج شريف ولم يأذن الله لهما بالولد هو يعرف أنها حالة غير شاذة ولكن بالنسبة له .. الوضع غير مريح .. وضع يفتقد المصدر الرئيسى للسعادة والفرح .. لقد أكرمه الله بزوجة ممتازة شكلا وخلقا وأصلا .. لكن .. ودائما هناك كلمة « لكن » تتربص بالناس .. كلمة أكثر شهرة واستخداما من الملح فى الطعام .. تتغلغل

فى كل شىء وتمثل عاملا دراميا ، بل مأساويا فى كثير من قصص الحياة والناس .. دورة وضعها الله فى كل حياة .. وفى كل شعب ، وفى كل قرار ، وفى كل قمة .. لكى تبدأ على أساسها رحلة النهاية .. طالت أم قصرت .

بعد البحوث الطبية العديدة ثبت أن العيب منه .. وجرَب كل شىء حتى أيقن فى النهاية أن الله هو الذى يريد ذلك ويصر عليه ..

أما السبب فى أنه لم يكن فى صبره غاضبا أو متبرما ولا هى فى استسلامها لقدرها ساخطة أو محتجة بأن العيب منه ، فهو أنها منذ طفولتها تعانى من ضيق فى الشريان التاجى .. وهذا يعنى حسب نصائح الأطباء أن الحمل قد يسبب الوفاة .

هل الدنيا مرسومة بحذق بالغ كما يقولون والمصائر يحركها ماكر ؟ هل يتدخل الله فى تحقيق التوازنات بين الناس إلى هذه الدرجة؟ أخذ نفسا عميقا من سيجارته ونفثه على مراحل طويلة .. حتى لو لم أكن عقيما لما أردتها أن تنجب لأن هذا معناه أن أفقد هذه الإنسانة الغالية . سبقتها رائحتها إلى أنفه وكيانه قبل أن تضع كفيها على عينيه وتقول له : هل تعرف من أنا ؟

قال : ساعدينى ببعض الصفات .

قالت : ببطء ودلال : حلوة .. وأحبك واليوم عيد زواجى .

اندفع قائلا : عرفتك

قالت : من ؟

قال : عم فريد .

ضحكت وعانقته .. اقشعر جسمه ، وأحس ببرودة زائدة ومفاجئة تدفعه نحوها .. لقد جاءت بالضبط عندما كان يناقش أو على الأصح لا يناقش للمرة الألف قيمتها عنده ثم يعلن بإجماع كل أصواته تفضيلها على الدنيا كلها .

أخذ عدة أنفاس متلاحقة من سيجارته ليتفرغ للسيجارة الكبرى.. السيجارة التى لا يمل من تنفسها والاستمتاع بدخانها .

جلست على فخذيه وأطلت فى عينيه .. ألفت قلبه قابعا ينتظرها على باب حبه ، وحبه قصر أسطورى يستعد لاستقبالها ويغلق للأبد عليها أبوابه .. أطل فى عينيها .. فوجد الرقة والعذوبة والحب الصافى والأنثى فيها تتعجل الاجابة العملية على السؤال الخطر : ما رأيك ؟ .. ألا زلت جميلة ؟ ترك العينين ومضى يبحث عن الاجابة ..

أسعده أن يكون – هو العبد الفقير – مالكا لهذا الجمال ، حسده أكثر زملائه إخلاصا حين وقعت أنظارهم عليها .. كان بعضهم يغامر باعلان رأيه أمامه بصراحة اعتمادا على أنهم أصدقاء ... ولكنهم تدريجيا بدأوا يتمنون له السعادة بعد أن أيقنوا أن الجمال وحده ربما لا يكون كافيا .

ارتاح شريف لاعتقادهم هذا ، لأنه بالطبع لا يسعده أن تخطر امرأته ببال أحدهم ، وأفكار الخلق وخيالاتهم تعربد بلا حدود .. وقد تعود أن يقبل عليهم من كل قلبه دون أن يخالجه أى شك فى إخلاصهم له ، بل وفى اخلاص العالم كله لبعضه .

– ماذا بك ؟

– أحس أننى تزوجت الليلة فقط .

– اذن فقد مسحت سبع سنين .

– لولا الذكريات الجميلة كنت مسحتها .

– اعتبر اننا كنا مخطوبين .

تأمل شفتيها .. كانت كقلب عاشق مضغوط ، تصور أن شفتها العليا ذات أجنحة وأنها توشك أن تطير ، تأملت شفتيه كى تهجم عليه وتقبله ، لعلها ترفع درجة حرارته التى لا تزال أقل من المعدل المناسب فى عصر ما بعد رؤيتها مزينة ومعطرة .. كانت شفتاه رفيعتين جدا كشق فتحه الطبيب تحت أنفه .. لكنها تحبهما وتشتاق اليهما وترى أنهما شكلا مبتكرا مـن أشكال الشفاه

قبلته متفادية بمهارة أنفه الطويل الذى كان يتدخل دائما للحيلولة دون وقوع أى لقاء من هذا النوع . لأنه فيما يبدو كان يدرك مسبقا ماالذى سيحدث له ولصاحبه بعد هذه اللمسة السحرية .. كان يعلم بفضل إلهامات فطرية كإلهامات النساء أن الأنف هى التى تدفع ثمن هذه اللحظات .. لا الجيوب كما يشاع .

وضعت رأسها على صدره وتشممت رائحة رجولته وحنانه .. سألته وهى شبه شاردة : هل تعلم ما هو المهر الحقيقى للمرأة ؟

قال دون أن يفكر فى الاجابة : لا.

قالت : ان يكون الزوج باعثا على الطمأنينة ، قادرا على تحقيق الأمان .. هذا هو ما يسعد امرأة الخفير وامرأة الأمير .

قال برقة : أنت جديـــــرة بأميـــر .. لكن ليس فـــى مصـــر أمراء .

تنهدت وقد شعرت براحة لا متناهية لهذا الأمان الانسانى اللذيذ، والذى تتوجس من عمره القصير ..

استمتعت معه بتأمل المساء الذى صفا وتطهر بسرعة من أدران الهياج البشرى .. وفى الافق البعيد لاحت لهما بعض النجوم وهى تحاول أن تخفى سقوطها السريع . أدرك أنه أسعد مما يتصور برغم إصابة عينيه وذراعه الأيسر ..

اكتشف أن الآلام التى كانت فى فكه تراجعت بسرعة مشاركة منها فى طقوس يومه المجيد .

كبر البدر الصغير وأتاح له رحيل الغيوم الفرصة كى ينير ليلة من يتعطشون للضوء المسائى الشاحب .

وقف شريف بنظراته على خديها المتوترين بالشوق .. قبَّل الخد الأيمن وتوقف ليتذوق فأشارت له على خدها الأيسر : هذا سوف يغضب .

قبله بعناية خاصة حتى لا يغضب حقيقة . ثم عاد وقبَّل الأيمن حتى يتحقق العدل .

سألته بوله : هل يمكن أن نعيش العمر كله هكذا ياأنا ؟

أجابها شريف متطلعا الى السماء :

- لن يسمح الله بذلك ياأنا .

سألته : وماذا سيفعل ؟

قال : سيأمر النهار بالطلوع .

تململت قائلة : أنا لا أحب النهار .. الليل أجمل .

شرد قليلا ثم قال :

– كانت كلمة الخلود إلى وقت قريب كلمة وهمية أو مجازية .. لكن حينما يجمعنا الليل معا فى مثل هذه الاوقات أشعر شعورا عميقا بطعم الخلود .

ارتاحت بإحساسها فقط لكلماته ، دون أن تعى تماما مدلولها .. أما هو فكان يحس أنه لا يملك معها إلا أن يكون رومانسيا رقيقا يحمل قلبه دائما على كفه ويقرأ لها منه .

حكى لها بهدوء وبطء كأنه نصف مخمور عن بعض ذكرياته ونزواته التى تجلت خلالها سذاجته وقلة خبرته ، وهى مع كل قصة أو موقف تغرق فى ضحك رنان ، .. ذكّرها بحديقة الحرية والشجرة التى حفر عليها اسميهما أيام الخطوبة والحب فى الشوارع ، ثم عادا إليها بعد شهرين فلم يعثرا عليها .. كان المسئولون عن الحديقة قد أعادوا تنسيقها بعد أن اجتثوا الشجرة من جذورها وأخفوا كل آثار الخطوط النزقة وأقاموا مكانها نافورة .. تأملا النافورة وهما يتصوران أن اسميهما معلقان بذرات الماء الفضية .

سألها : هل تذكرين يا أنا ما الذى جرى بعدها ؟

قالت : ذكّرنى يا أنا .

قال : ألم أقل لك وقد سيطر على العناد .. لا بد أن أسجل اسمكَ على شىء لا يستطيعون هدمه أبدا ولا حذفه .

ابتسمت وهى تخوض فى ضباب الذاكرة .

سألتك : أين ؟ فقلت على الحديد ..

ضحكت وكادت تطير لهذا الوعد الجميل .. تهادت إلى جانبه فى موكب البهجة على كوبرى قصر النيل ، والنسمات العفية تشرب من النهر وتهجم على المارة فترفع ثياب النساء ، وتقضم آذان الرجال وتحمل الأطفال حملا على العدو والفرح .. بحث معه ومعها عن أى أداة حادة ليسجل بها اسميهما على حديد الكوبرى إلى أن رضى أخيرا بملقاط الشعر الذى كان معها .. وحفر الاسمين داخل قلب واحد وسهم كيوبيد يمر به ، والحب يسيل قطرة قطرة ولكنه كفيل بإغراق الآخرين

بعد شهر حملهما التسكع والبحث فوق النيل عن طريق عذب تظلله النسمات العليلة يمكن أن يسير فيه حبهما متخلصا من الطرقات الفظة والعيون .. كان طبيعيا أن يمرا على سجل الخلود الذى نقشا فيه اسميهما .

لم يستطيعا تحديد مكان الصفحة الحديدية التى ستتذكر القرون القادمة بعاشقين تعاهدا بكل عمق الحب على مقاومة الزمن والظروف ، والحياة الى الأبد برغم الحياة والموت .

كان متأكدا أنه لم يحدد المكان بسحابة وانما بالعامود الذى تحته مباشرة بغلة الكوبرى .. وها هو العامود وها هى البغلة .

حدق فى حديد الكوبرى من جديد .. تلفت حواليه ومسح الكوبرى بعينيه .

– هل تذكرين يا أنا ؟

– ذكّـرنى .

- لون الكوبرى يا أنا .

- نعم .. نعم . لقد تغير لون الكوبرى .

كان يحاول أن يلعب وحده مع دنيا محتشدة بالخلق والتغير والجنون .. كان لون الكوبرى أخضر والآن هو أحمر .. لم يعثر أبدا على الاسمين ولا على القلب ولا حتى سهم كيوبيد .. أعيد طلاء الكوبرى وتغطى تماما كل ما كان به من ندوب أو خدوش أو قلوب تبحث عن نافذة وهمية لحياة مختلفة .

نهضا وتعانقا أمام العالم ثم مضيا إلى الداخل .. هى الى المطبخ وهو إلى حجرة النوم .

جاءت بالموز واليوسفى وأسعدها أن تجده قد عثر على اللحن الذى يتسق مع لحظات خالية من الزمن ، ورآها تطلع عليه من داخل الثوب الوردى الفضفاض نهما مجتاحا فتذكر دعاءه ؟ . يارب ما دمت قد قضيت على بألا أنجب فلا تحرمنى من الشهوة أبدا ومُرْ عصبى دائما بالاستجابة كلما أمرته .. وكان قد آتاها فى فترة حيض واذا به يتعطل بعدها شهرين ، لو أُدْخل جهنم لما عانى من العذاب قدر ما عانى .. يارب ما دمت قد .. وسرعان ما انتشر ونهض ، فتلقاها بين احضانه .. وقبلها قبلة ناعمة ومدللة ، لكنها امتدت أكثر مما ينبغى . ودنا الجسدان فى اتجاه التوحد ، وشرعا يرحلان إلى عالم آخر .. تعالت الموسيقى المتئدة وتوترت .. تخلصت من البدايات المتوجسة وارتقت درجا فوق درج .. وتوالى القفز فوق أغصان الجسد المنتفض بالنشوة .. مالت الانغام فى دلال وتثنت .

انسدل الرداء وتخلى عن دوره فى الوقت المناسب .. انكشف الجسد المرمرى الدافىء .. ناعما ومثيرا .. صرخت الظلمة تحت وقع أنفاسه المتوهجة ، وأُلْهِمَ الجسد الملك يد العبد المشتاق مهارة ورقة فى تلمس الطريق الى مواضع لتقديم القرابين .

أحس أن امرأته بالذات ، فى هذه اللحظة بالذات وهى مفعمة بالدعوة الفاتنة ، أثمن ثروات الارض ، فتفتحت كل طاقاته وغرائزه وكافة ذراته للمشاركة فى الوصول الى أقصى قمم الحرية الانسانية ، حيث الجميع مستعد لأن يفقد الحرية تلبية لنداء الرغبة العاتية ، وأتيح لعقله أن يدهش وهو يفكر فى الحكمة الالهية التى حالت دون جعل حياة البشر كلها على هذا النحو ، لماذا لم يترك للبشر حرية أن يتقدموا فى هذا السبيل أو يتأخروا ؟ لكنه لم يستطع أن يجد الوقت ولا الفكر للاجابة بالنيابة عن الحكمة الإلهية .

ألقى بالفلسفة بعيدا حين صرخ النغم فجأة ، وارتجفت الأوتار من هول الأعصاب المحمومة وتأوهت من عنف الايقاع .. لو كان لها الآن أن تتمنى لتمنت أن يؤجل موتها لحظات حتى تكمل اللحن الخالد.. أى سر فى هذا اللحن الأثير ..

.. تحولت الحجرة السابحة فى الأسرار والدفء الى تفاحة كبيرة تأكلها آلاف الشفاه .. اللعنة لو لم يكن لهذا اللحن الرائع نهاية ، ولم يكن منه شبع ، لا شك أن الذى وضع هذا الكونشرتو كان يبغى أن يُجن العالم بفنه وأن يأسرهم بحكمته وجبروته العبقرى .

وفى الحركة الأخيرة انشال المايسترو وانحط ، وتوتر اللحن المحموم وأسرع يدور حول نفسه بعنف ويوشك أن يحطم الأوتار الملهمة

ثم علا وعلا .. وواجه أقصى قمم اللذة التى صدمته بلا رحمة ، فاندفع نحو الأرض بقسوة الى أن ارتطم بها وسكن ، وتفجر البهاء على الملامح المنهمكة واستسلم العالم لغيبوبة الرضا والسعادة .

بعد لحظات اقترب نحوها ورآها متألقة فى الضوء الوردى المتوارى .. كان فى جسد ، وهى فى جسد آخر ..

العينان فى العينين والشفاه منهكه ، دنت الأصابع من الأصابع وتشبثت بها .. هذا فقط ما يستطاع والساعة الآن الثالثة حباً بتوقيت حجرة النوم فى شقة شريف أبو العلا موسى وعلى المقيمين خارجها أن يضبطوا أزمانهم عليها اذا استطاعوا ..

دس يده تحت الوسادة وهو يقول لها : اغمضى عينيك . أغمضتها .. وطلعت يده بعلبة صغيرة حمراء ، فتحها وقال لها :

– كل سنة وانت طيبة ياأنا .

فتحت عينيها .. شهقت فرحا وهى تقول :

– انه هو .. بالضبط هو .. ألازلت تذكره ياأنا ؟

– وكيف انسى شيئا طاف بخيالك !

كانت قد رأت هذا الخاتم منذ عام تقريبا وأطالت النظر اليه ، ومرت الأيام وشريف ينتظر المدد من أى مصدر ، ولكن شيئا مما تمناه لم يحدث ، الى أن فوجىء قبل اسبوعين فقط بالأستاذ ملاك يخبره بأنهم كسبوا قضية الحوافز المستحقة لهم منذ أربع سنوات ولم يسبق صرفها بواقع جنيه واحد و ٨٥ قرشا فى الشهر ، بكل أعصابها قالت : ياحبيبى يا أنا .

قبلت صدره وانحنت إلى « الكمودينو » فسحبت منه لفة وأعطتها إياه .

– كل سنة وانت أحسن مخلوق فى الدنيا يا أنا .

اعتدل وفتحها .. تأملها ثم قبلها .. روب له ولكن من قماش غريب .. روب يمكن أن يكون لمهراجا أو لصياد نمور أو دجال .. من أين حصلت على هذا الروب ؟

ابتسمت وهى سعيدة بدهشته .. سألته ؟

– هل اعجبك ؟

– طبعا .. ولكنه غريب وألوانه غير عادية وخيوطه و ..

– هذا من ريش الديوك .

– مؤكد هو من الخارج .

– بل من صنع يدى ..

فتح فاه وعينيه ..

– تسلم ، ولكنى أريد الحقيقة .

تنهدت وقد بدا عليها الزهو ، ثم قالت :

– خطرت لى الفكرة بعد عيد زواجنا الماضى مباشرة .. أى منذ عام جمعت ريش الديوك التى أربيها لمدة ستة أشهر ، ثم بدأت فى صنعه

.. نسجته من خيوط الريش الرفيعة بعد أن نزعت من الريشة عَصَبها الاوسط .

– مستحيل .. هذا كثير .

– وانتهيت منه منذ أسبوعين .

هيا قم وأرنى كيف تبدو فيه .

نهض بعريه وارتدى الثوب الغريب .. ألوانه وحدها تومض وتنطفىء .. ملمسه عليه مثير .. ما هذا ؟ .. توترت أعصابه وأحس بالهياج . ابتسم فسألته : ما بك ؟

قال ضاحكا : أود أن أصيح وأوقظ الفجر . ضحكت ضحكتها الرنانة فأضاءت الصالة وتسللت بقاياها الى أعماقه .. هاجمه العدو اللدود ، الذى تعود أن يتربص بلحظات هنائه .. وفكَّر فى سعادتها الناقصة .. وسرعان ما قاوم الاستدراج نحو الاعتراض من جديد على حكمة الله ..

قائلا : يكفى أننا نقبل على نزواتنا بلا مخاوف ، وهناك أناس يدفعون ثمنها غاليا .. وتمضى بهم رحلة الحياة ولا هم لهم الا ملء البطون .

غمرته فجأة رائحة غريبة .. تشمم الهواء متوجسا .. صرخت سلوى ..

– اللبن .

أسرعت عريانة تجرى فى الشقة كجنية خرجت من البحر .. والمشمشة الكبيرة خلفها تترجرج .. اطفأت البوتاجاز .. لم تجد أثرا للبن ولكنها وجدت الوعاء الألومنيوم قد احترق . واسود ، وبدأ يطقطق وهو يتفحم .



(٦)

دخل الأستاذ ملاك مدرس الانجليزى إلى حجرة الناظر .. سلم عليه وقال لشريف .

– أستاذ عبد الرحمن شمعة يسأل عنك .

– هل خرج ؟

– وهو فى المدرسة الآن

فرحة شريف بخروج عبد الرحمن مدرس العلوم جعلته يؤجل حواره الطويل مع حضرة الناظر الذى يرفض رحلة السد العالى وأسرع ليلتقى بصديقه .

اعتقل عبد الرحمن منذ شهرين ضمن مائتين من أعضاء الجماعات الدينية بتهمة قلب نظام الحكم ، ونشرت فى الصحف صورتهم مع بعض البنادق .

.. بعد التحقيق اكتشفوا براءته وأنه .. لا علاقة له بهذا التنظيم السرى المزعوم .

توجه شريف الى حجرة المدرسين ، دون أن يرى غير عبد الرحمن .. عثر عليه متعثرا فى هزاله وشحوبه كأنه لم يأكل منذ عام .. عانقه طويلا وسيطر على الدموع التى فجرها اللقاء بعد الافتقاد القاسى

تبادلا بعض العبارات عن الصحة والأحوال ، ولكن أسئلة جديدة تكدست فوق أسئلة قديمة ، وكان حتما البحث لها عن إجابات .

قال شريف : لا بد أن ألقاك قبل ذهابك .

رد عبد الرحمن : وأنا أيضا أريدك ..

تلاقت اليدان والقلبان فى عناق ، عبرت العيون عن مدى عمقه ، ثم افترقا بعد نهاية اليوم الدراسى ، سعى شريف إلى عبد الرحمن مثقلا بإحساس قديم بالاشفاق عليه لا يبرح قلبه .

فى كل مرة يتحدث أو يستمع إليه يكتشف أنه كتلة غيظ هائلة تمشى على قدمين رغم بساطة مظهره وهدوء شخصيته وخفوت صوته الذى ينساب برومانسية لا تتفق مع ما يتضمن من معانٍ .

أفكاره كلها ثائرة وجادة ومدعمة بأحديث نبوية وآيات قرآنية ، وكثيرا ما يدهش شريف ، كيف تواتيه ذاكرته بكل هذه النصوص عند طلبها .. دائما عنده المدد من النصوص المناسبة لكل موقف أو مشكلة بل والمؤيدة لكل فكرة مهما كانت بسيطة أو حتى حديثة من منتجات عصر التكنولوجيا .

وشهدت حواراتهما معارضة من شريف لأفكار شمعة التى تصر دائما على إدانة الناس .

– الناس فى الغالب طيبون لولا القلة .. وحتى هذه القلة لا تقصد الخطأ أو الاساءة .

أصر عبد الرحمن أن القضية أكبر .

– لقد عبث الساسة بالتكوين الأصيل للإنسان المصرى ، شوهوا معدنه ، ودفعوا بالناس إلى طرق غريبة لن توصلهم الى الأمان أبدا ، والمشكلة الأنكى أن أجهزة الاعلام وخاصة الصحافة تروج لكل أقوال الساسة وأفعالهم وتبتكر من التحليلات العبقرية ما يبرر للناس صواب كل ما يدعو إليه الساسة .

– لكن هناك دائما أمل .

قال عبد الرحمن بكل هدوء وثقة : لقد بدأ العد التنازلى

أسرع شريف فى شبه احتجاج : لأى شىء ؟

أجاب شمعة بنفس الثقة كأنه يقرأ من كتاب منزل :

– لانهيار هذه الأمة وضياعها ، هذا أمر لا يتعين قبوله ببساطة ، بالله عليك قل لى .. هل تعجبك أحوال البلاد ؟

– لا .. ولكن الأزمة عالمية .

– هذا كلام المسئولين

– هناك صحف معارضة يمكن أن تواجه وتقاوم .. هل قرأت مقال منير الأخير فى الأهالى ؟

هز شمعة رأسه أسفا على معلومات صديقه :

– يبدو أنك لا تدرك أن الغرض الحقيقى من وراء التصريح لصحف المعارضة بالنقد ليس إلا الثرثرة فقط والتنفيس .. أى تفريغ الشحنة ، دون أن يسمع لها أحد أو يستجيب ، ويمكن تاريخيا من ناحية أخرى أن تحتسب لهم كدعاة للديمقرطية التى أهدرها الآخرون .

– لكنها وسيلة كشف

– هذا اذا كان أحد من المسئولين يريد أن يكشف شيئا .. هو مرتاح فى موقعه وراض عن كل ما يجرى حوله .. إنه مناخ كامل كونته طبقة سميكة من السعداء المتكاتفين .. بصرف النظر عن الخطب.. انت نائم فى العسل .. وأمثالك يجب أن يستيقظوا من هذا النوم .. تمتد لحظات من الصمت .. يكون خلالها كل منهما فى وادٍ لا يلفه الصمت الذى يسود المكان .

عبد الرحمن يلتقط أنفاسه ويخفف من وطء هجومه على صديقه ، فهو يتمنى من كل قلبه ألا يفقده . بالعكس هو ينتظر اليوم الذى يصبح فيه شريف أبو العلا .. شريف شمعة .. شريف الذى تحتشد روحه بكل نبيل ورائع من المشاعر تجاه الناس والزملاء والكون كله لا ينقصها الا أن تنهل من الدين .. هو فى نظر شمعة أرض خصبة لنبت جديد ، ولكنه حتى الآن لم يحقق معه إلا تقدما محدودا .

كان شريف فى واديه .. يجوس خلال اعماقه يبحث عن بحور العسل التى ينام فيها كما ظن شمعة .. والغفلة التى يتحدث عنها ، والحكام العابثين والديمقراطية الصورية .. هو يعرف تماما حسن ظنه بكل شىء ، ولعل هناك ما لا يستوجب حسن الظن ، لكن الصورة ليست كما يعبر عنها شمعة .. لا بد انه هو وزملاءه يفكرون بشكل مختلف ، ويدينون لأفكار بعينيها ولا بد أن لديهم هدفا .

.. طفا شريف فوق بحر الصمت وسأل صديقه :

– هل أنت ممن يسعون لتكوين حكومة دينية ؟

تمهل شمعة على غير عادته قبل أن يجيب ، لا بحثا عن إجابة وإنما دهشة لسؤال لم يتوقعه الآن ، وفى الوقت ذاته فرحا بالسؤال لأن معناه أن الصديق يقترب .. أو يريد أن يقترب ، وهذا السؤال خطوة ذات قيمة ويجب أن تلقى إجابته رعاية خاصة :

ليس هدفنا المصيرى أن نشارك فى حكومة أو حزب .. المهم أننا نطلب حكومة تسعى لتنفيذ أحكام الشريعة .. حكومة عادلة تعرف الحق وتبدأ بإصلاح نفسها ثم تنجز مصالح الجماهير فى ضوء ما يمليه الإسلام لأنه الدستور الإلهى ، نظر شريف إلى ساعته وقال :

– المسألة فى نظرى تحتاج إلى نقاش وتفصيل

ابتسم شمعة سعيدا برغبة شريف وقال له :

– غدا أنا فى انتظارك قبل صلاة المغرب .. سنصليه معا بمشيئة الله ثم نستمع إلى الدرس ونصلى العشاء .

– غدا سأكون عندك

– إياك أن تقول كالمرة الفائتة لم يمنعنى عنك الا دور الشطرنج الذى طال

– ذكرتنى .. لماذا لا تأتينى أنت لأعلمك الشطرنج ؟

– الشطرنج لعبة الفارغين

– ولكنه ينشط الذهن

– الذهن يعانى من النشاط الزائد ..

تأمل شريف ملامح شمعة المرهقة وسأله وهما خارجان من المدرسة : هل آذوك فى السجن ؟

تنهد عبد الرحمن وقال بوداعة

– يكفى أنه سجن

من كل قلبه قال – أنا قلق عليك . تطلع شمعة أمامه وتأمل الطريق الطويل الذى يمتد بلا نهاية ، تحوطه العمارات الشاهقة كالحراس العمالقة ثم قال :

– لن يضيرنى أن أقضى عمرى كله بالسجن .. ولعلمك نحن لا نحس به ولكن يضيرنا أن يعيش الناس فى سجن ، وألاَّ يجدوا من يحميهم من أنفسهم ومن المستغلين

حاول شريف أن يتصور معنى كلمة شمعة

– لعلمك نحن لا نحس بالسجن

تصور نفسه داخل السجن فى زنزانة حقيرة صغيرة تجمعه مع عشرة ، يأكلون الخبز الجاف ويتبولون فى دلو ، ويشربون من آخر تنتقل بينهم الحشرات ، يتبادلون الأفكار السوداء ، وتوزع عليهم سخافات السجانين من السب الى الضرب .. طابور طويل يفضى الى هدف واحد هو محو الآدمية .. القلق على الأهل سرطان يأكل المخ .. والساعات طويلة ومملة ، النهارات بلا قلوب تسلمهم لليالى بلا نجوم .. كيف لا يحس شمعة وزملاؤه بهذا كله وهو الذى كاد يجن لأنه اثناء عملية الزائدة قضى ليلة بكاملها ممددا على ظهره ومستيقظا حتى الصباح وحيدا ، إلى أن جاءت زوجته ظهر اليوم التالى .

أحس أنه مرفه برغم تواضع حالته المالية ، وتأكد أن أفكاره رغم جسارتها لن تفضى به إلى الصدام مع النظام ، ولا مع أى انسان ..

أما شمعة فيســتحق أن يقلق من أجله ، لأنه مقاتل عنيد من أجل ابســط الأمور ، ولا يقبل الحلول الوسط .. قال شريف : حاول أن تتفاءل .

دوت ضحكة عبد الرحمن بشكل لم يسبق أن سمعه شريف :

– يا أخى تفاؤلك الدائم يحيرنى .. لا شك أن التفاؤل من الايمان ، لكنك تتفاءل دائما حتى والعالم على وشك الانفجار .

تنفس شريف بعمق وقال :

– أجمل ما فى الحياة حسن الظن بالأيام .

قال شمعة

– هناك من يتربص بأيامنا .. لكل منا وأنت معنا دور فى مسيرة الاصلاح .

مد شريف يده وصافحه بحرارة وعانقه كأنه يستعد لسفر طويل ، وقبل الافتراق على ناصية شارع شيخون ، قال شمعة :

– لا تنس

– غدا قبل المغرب

– بمشيئة الله .

عاد الى البيت .. لم تكن سلوى هناك .. كان يعلم أنها لم تذهب إلى مكتبها فى وزارة الزراعة .. ربما صعدت الى السطح .

خلع ملابسه وصعد إليها . أسرع إليه الدجاج والبط وخلفها الذكر الكبير ذو الوجه الأحمر ، يتنفس بصوت عال كأنه يهدد .

لم يجد سلواه ، غرف من جوال الذرة طبقا كبيرا .. نثره لهم فانتشروا فوق الحب ، يلتقطونه فى خفة . لاحظ أن الديك الشرس لا يزاحم على الحب ، ولم يتقدم إلا بعد أن أكلت دجاجاته .. بل لقد ذهب الى الركن البعيد من السطح حيث تقبع دجاجة وحيدة .. أخذ يزمجر من حولها لتذهب وتشارك أخواتها حتى استجابت .. تبين بعد ذلك انها كسلانة ، انتهى الحَب فألقى شريف المزيد إكراما للديك ذى النخوة .

لم يمنعه تفكيره فى سلوى من أن يتأمل اكتشافه الجديد .. أن الطيور بلا أسنان ، تلتقط الحب وتبتلعه ويبقى فى حواصلها الى أن تذيبه العصارة المعوية .

كما رأى سلوى تفعل ، أمسك بعصاة غليظة وأسرع خلف بطة فوضعها على رقبتها وضغط فنامت فى الأرض وأمسك بها .. وجد حبات الذرة مكومة فى أسفل رقبتها .. دهش لهذه التشكيلة الغريبة فى الخلق . تشكيلات بلا نهاية تشمل كل مخلوق حتى لو كان نملة أو حتى بكتريا وربما هناك الأقل .

اقشعر جسده من قدرة الخالق ، وأحس بضآلة الانسان الذى يعتبر نفسه السلطان الأوحد .

صب الماء فى أوانى الطيور ووجد حزمة من البرسيم ملفوفة فى قماشة مبتلة .. أخرجها وحشها لهم فى الصينية الكبيرة ، التفوا حوله وهو يقطعها وحاول أطولهم أن يلتقط فتات البرسيم وهى لا تزال فى الفضاء .

فتح عشة الأرانب .. ألقى لها عيدان البرسيم .. تأمل جمالها

وصفاء عيونها وخلو بالها من كل شيء عدا الطعام .. أغلق عليها ، ولم يفكر في الاقتراب من بناني الحمام لأنه لا يعاني من مشكلة ، فهو يسعى إلى طعامه بنفسه .. يخلقه خلقا .. حتى المياه .. يذهب الى أى مياه في العالم فيشرب ثم ينقل منها على عشرات المرات قطرات لأفراخه الصغيرة .

بحث عن المكان الذى تعودت الدجاجات أن تبيض فيه .. أخذ كل ما وجده ونزل . أين تراها ذهبت ؟ .. عندما دنا من باب الشقة سمع رنين التليفون .. رفع السماعة فسمع صوتها تخبره بأن زوج اختها الاستاذ مفرح اتصل بها وطلب حضورها فورا وكان قد اتصل فى منتصف ليلة الأمس ولكن السماعة كانت طبعا مرفوعة .. يحتمل أن تلد أختها خلال ساعات قليلة .

قلى أربع بيضات فى دهن البط .. وتناول غذاء وحيدا فى منقوع الصمت .. عثر على برتقالة كبيرة متخلفة من الاحتفال السنوى بعيد ركوبه سرير الزواج .

أعد الشاى وحمله مع علبة السجائر الى حجرة النوم .. كان فى حاجة الى النوم ، لكنه كان فى حاجة ايضا – على الأقل وهو مستيقظ– الى الشاى والسجائر .. شعر بأن جسمه على وشك أن يتفكك وتنفصل أجزاؤه ، وأنه لن يستطيع أن يجلس واعيا لدقيقة واحدة وهو الذى لم ينم بالامس قبل الفجر وبعد انتهاء التوقيت الغرامى ، عليه الآن أن يموت من النوم ، وخطر بباله أنه هو الاخر قد أصبح من مخلفات الاحتفال السنوى .

(٧)

انخفضت سرعة السيارة وهى توشك على بلوغ منتصف الطريق العريض .. الخالى المظلم . الصامت الموحش ، الذى يرتفع فجأة فتقع من جانبيه الوديان السحيقة ، وينخفض فجأة فيختفى بين تـــلال متجهمة ... تهادت السيارة حتى توقفت ، نزل السائق .. فتح غطاء الموتور وأطل فيه ، أغلق الغطاء ، ثم عاد الى نافذته وأطل قائلا لمن تجلس فى الكرسى الخلفى ..

: – آسف يامدام .. الكتاوت فيه شحن زيادة ويحتاج الى ضبط لمدة خمس دقائق .

سكت فسألته : ومن الذى يصلحه ؟

: الكهربائى على بعد خمسين مترا فى هذه الجهة .. اذا كانت ظروفك لا تسمح تفضلى خذى سيارة أخرى .

وقعت الشابة فى حيرة .. أين هى هذه السيارة التى يمكن أن تقف لها ؟

وكيف والشارع مخيف .. أخيرا قالت :

: اذا كانت خمس دقائق فقط .. أنتظرك .. ولكن أرجوك الوقت متأخر .. دفع بكتفه السيارة قائلا .

: فورا يامدام

مضى يدفعها بيد ويقودها من الخارج بيد .. ترك الطريق المرصوف وهبط فى طريق ترابى مسافة مائة متر تقريبا .. أوقفها أمام مبنى مظلم لا تبدو له أية معالم .. نزل وفتح الغطاء من جديد ، ثم تركها واختفى فى الظلام دقيقتين .

عاد اليها وقال : أيقظته من النوم .. لو سمحت تنزلى لأن العدة تحت الكرسى ، ما إن نزلت من السيارة حتى انقض عليها . كتم فمها بيده وحملها الى المبنى المظلم وألقاها على الأرض . اضطربت .. وتكثف كل فزع العالم فى كيانها .. لا يمكن أن يكون هذا إنسانا .. أو حتى حيــوانا .

أخذت تضربه وتدفعه بيديها وقدميها ، ثم صرخت ، لكنها اكتشفت أن الصراخ لن يجدى ، لأن الافق كله يبدو بلا نقطة نور واحدة الا نور السيارات المسرعة ، ونقط ضوئية على بعد مئات الأمتار فوق جبل المقطم .

مضت تخمشه بأظافرها ، وتعضه بأسنانها وهو ماض فى جنونه ولهاثه لا يحس بما تفعله . إلى هذا الحد هى ضعيفة لا تملك حماية نفسها .. إلى هذا الحد فى الدنيا وحوش على هيئة آدمية .. أخيرا أحست أن الاقدار ألهمتها الحل .. صرخت فيه : أنا زوجى ضابط بوليس وسوف يقتلك ويشرد أهلك ياكلب

قال لها الجبل الذى يجثم على صدرها دون أن يهتز :

– كلهن يقلن ذلك

عادت تصرخ عاليا : البطاقة فى الحقيبة .. إنه ضابط أقسم لك ..

كانت بروحها تفتش عن معين .. لم تجد فى السماء نجمة واحدة تشفق عليها من مساء تواطأ مع أعدائها وسلَّمها للفضيحة .. بحثت بيديها فى الأرض عن حجر بلا جدوى ، جمعت ترابا بحفنتها وعفرت به وجهه .. لم يعبأ .. دفعته بركبتيها فى بطنه .. لم يتأثر . ألصقت فخذيها حتى أصبحا فخذاً واحداً قويا ككتلة من حديد .. لم يطل الوقت حتى أصبح فخذاها منفصلين ، سرعان ما دخل بينهما .. كادت تُجن لأنه ليس فقط هائل القوة بالنسبة لها ، ولكن لأن له عشرة من الأيدى والأرجل .

أخيرا تمكن من كل ما تملك .. بلغ بها الذعر مدى لا يبلغه ذعرها لو كان يقطِّع جسدها بساطور .. أمسكته من أذنيه بشدة وجذبته من رأسه .. أكلت وجهه أكلا وبالرغم من أنها تصورت أنها بالفعل نهشت لحمه فإنه لم يحاول التخلص منها ومن شهوته المجنونة ، كأن الأمر قد انتهى وانطلق السهم الذى لا يمكن أن يعود الى موضعه .

جربت معه كل أشكال الدفا ع والهجوم ، وبصقت فى وجهه ، ودست التراب داخل عينيه عدة مرات . عبأت به فمه ، رفسته . وهو فوقها جبل لا تهتز منه شعرة ولا تتراجع خطته خطوة .

بعد أن تركها . لم تستطع أن تنهض .. أشفقت على نفسها وهى فى الظلام وحيدة مغتصبة ومقهورة .. ممزقة ومفضوحة .. والمأساة تلطخ أيامها وكل شىء جميل فى حياتها .. ذلك كله أصبح فى الطين .. لم يشفع لها أى شىء .. طيبتها .. حب الناس لها وحبها للناس .. رعايتها

لأبيها وأمها .. سلامة سلوكها .. لم يقف شيء إلى جوارها .. أخيرا وهى تتقلب عثرت بحجر كبير ، كان السائق قد أدار موتور السيارة بلا أية مشكلة ودار بها واعتدل على الطريق .. نهضت مسرعة . جرت خلف السيارة ، قذفت الحجر فى اتجاه السيارة فارتطم بالزجاج الخلفى وهشمه .

اسرعت تجرى الى الطريق العام .. خاف السائق أن يتوقف وينزل لها لأن السيارات العابرة كثيرة ، فضَّل أن يسرع بالهرب .

فى هذه اللحظة فقط .. سقطت منهارة على قارعة الطريق وتكومت تبكى .. تبكى كما لم تبك من قبل ، وكما لا يمكن أن تبكى بعد ذلك لأى سبب مهما كان .

كانت دموعها أسلاكا طويلة من اللهب ، تنبع من الأقدام وتشق الأعماق مارة بالقلب المسحوق ، تكويه وتصعد الى المآقى المحترقة .. كيف يتسنى لها الآن أن تنتقم ؟ وكيف يتسنى لها أن تعيش .. التراب أولى أن يوارى مأساتها ويحفظ أهلها من وحلها وذيلها الطويل المدنس.. بكت بقوة والجسد كله ينتفض من ارتطامه بصخرة المأساة التى لا تتفتت أبدا ، ولن تتفتت .. كان هذا يعنى مزيدا من الانهيار ، بل يعنى الانهيار الأبدى .

لماذا لا تقتل نفسها ؟ هذا هو الحل .. لن يعلم أحد بشىء .. ولن يتلطخ أحد بالكارثة .

أسهل الحلول أن أموت قبل أن تحفر أظافر الفضيحة فى صدور أهلى وزوجى شريف .. مستحيل أن تمس ثوبه ذرة من ترابى .. لا بد أن أموت ..

كنت أتعثر فى الناس أينما ذهبت ، كانوا حولى أكثر مما يجب حينما تمنيت أن يكون أحدهم إلى جوارى لم أجد أثرا لهم .. كنت وحيدة وفريسة سهلة تنهش فى لحمها أسنان مسمومة .

الموت ياإلهى ليس إلا بإذنك .. فادفعنى إليه وخلصنى وسامحنى وارحمهم من بعدى .. سأتمدد على هذا الطريق .. لن يكون مطلوبا أكثر من هذا . ساعدنى يارب واصدر أمرك للموت كى يمر على بقايا جسدى .

توقفت إلى جوارها سيارة بيضاء صغيرة .. نزل شاب .. سمع عصف البكاء الذى بدا عاليا خارج السيارة .. دنا منها .. حدَّق بحذر فى كومة اللحم الممزق .. تصور أنها كمين محكم وبارع .. هكذا أصبح يفكر كل الناس ، والذى تلسعه الشوربة ينفخ فى الزبادى .. تلفت حواليه بحثا عن معاونيها .. أطراف الكمين .. لم يجد أثرا لحياة .. ربت على ظهرها ثم دعاها للركوب .. لم ترد عليه .. وبعد إلحاح منه صرخت فيه ، لكنه أدرك أهمية أن ينقلها من هذا المكان ، قال لها :

– سيارتى رقم ١٢٥٦٠ وأنا مهندس فى شركة النصر للسيارات واسمى محمد الجزار ولن أتحرك من هنا الا لأوصلك حيث تريدين .

رفضت بشراسة . جذبها بحنان .. متوسلا إليها أن تستجيب حتى يكسب ثوابا بصحبتها .. أخيرا ركبت معه .. أدرك كل شىء .. ولم يفتح فمه بكلمة إلا سؤالا عن طريقها الذى أصبح فجأة قصيرا .. قصيرا جـــدا .

★★★

(٨)

ذهب إلى الشرفة .. سار فيها قليلا وأطل منها كثيرا .. سأل نفسه عشرات الأسئلة ، ولم يجد أية اجابة . قال مفرح إنها غادرتهم فى العاشرة والنصف .. منتصف الليل يقترب .. هذا كثير ..

أطل آخر طلة ثم لبس الروب ونزل إلى الشارع .. كانت هناك نحو عشرين درجة تهبط بالشارع العالى الى الشارع العام الموصل الى ميدان صلاح الدين ..

نزل الدرجات الحجرية .. القطط مشغولة بالتهام طعامها وقلب صفائح القمامة .. المعارك تدور بينها بلا رحمة ..

فى لمحة عين تتحول القطط من جنس إلى جنس اذا ظهر الطعام ، وتدخلت المعدة لتحكم العالم الذى تهبط عليه الظلمة والقمامة .

طاف شريف حول النافورة التى فى الميدان وتطلع إلى السماء كأنه يبحث فيها أيضا عن رفيقته . مسح قباب القلعة التى بدت تحت ضوء السماء الشفيف كمجموعة من الرءوس الصلعاء العملاقة . تنفس بعمق وواصل التحديق فى كل الاشباح التى تتحرك ، كلاب : بشــــر .. سيارات ..

تدحرج راجعا وقد ازداد احساسه بالوحدة والضياع بين الهياكل الضخمة وخواء الشوارع وعدو الكلاب فى اثر بعضها وعبثها الودود دون مبالاة بأحد وقد أحست أنها تمتلك الليل .. لا شىء الآن يهددها أو يحاصرها أو يدفعها عن اللهو والغذاء والتمتع والسيطرة .

دخل شقته .. كان قلبه ينبض بشدة .. نادى على سلواه .. لم يرد عليه إلا قلقه وخوفه .. سقط عقله فى قاع رأسه .. كل شىء الآن أصبح غيبا مجهولا .. عزم على أن ينزل بعد نصف ساعة من الانتظار الصعب ويبلغ القسم .. نعم .. لا حل .. لا .. عليه أولا أن يمر بالنقيب سليمان لابد أن يستشيره فيما يتعين عمله .

مزقته هو والسكون طرقات متلاحقة على الباب .. انتفض فى مكانه وهو يكتشف أنه ضعيف ومتهاوٍ حتى دون أن يواجه أى شىء .. قشة تافهة فوق مياه الحياة المسكونة بالعفاريت .. ألطف يارب .

لم يكن بمقدوره ألا يفتح .. لكنه فتح .. فتح بابا هائلا من الدهشة والفزع .. دق قلبه بعنف وهو يفسح طريقا لدخول الكائن الممزق الذى تشوه وجهه برك الدموع والوحل .. فستانها الأخضر الذى تصبح وهى ترتديه أجمل امرأة فى الوجود .. انفتح من صدرها حتى النهاية .. وتدلى قماش الكتف على صدرها وتعرى اللحم .. أه .. آهة لها سكين تشقه من حلقه حتى خصيتيه .. تعرى اللحم ولطخته بصمات زرقاء مكتومـــة وملعونة .

اندفعت بخطو المطعونة نحو حجرة النوم .. سقطت على السرير وأخفت وجهها فيه . لم يستطع السيطرة على أعصابه ولا على لسانه الذى سألها بصعوبة بالغة : ما . ماذا جـ ..جرى ؟

لم ترد .. اقتلع السؤال نفسه ثانية وهو غير قادر على الفهم وربما يرفض الفهم .. يريد أن يفهم بشىء آخر غير السؤال والجواب .. بشىء آخر غير العقل .

جذبها من ذراعها :

– أين كنت ؟

لم ترد .. جذبها بشدة .. قاومته .. جذبها وصفعها .. صرخت فيه .. صفعها بقوة .. دفعته عنها :

– ابتعد عنى .. ابتعد

قامت فجأة وهى منكوشة الشعر وقد بدت عنيفة ومتوحشة فدفعته بشراسة :

– أخرج .. لا أريدك .

أوقف دفعها له وقد تماسك بعد أن صفعها .. أمسكها من كتفيها بقوة لم تكتشفها فيه .

– اهدئى .. لا داعى لهذا كله .. أريد اجابة محددة .. مالذى جرى ؟ ماذا بك ؟ .. أين كنت ؟

– لن أقول شيئا .. أخرج الآن واتركنى .. لن أتكلم .

استطاع بصلابة أن يخرج قلبه الحانى عليها من اللعبة وأن يصفعها من جديد .. صرخ فيها وقد وضح أنه غير قادر على الصبر ..

– لا بد أن أعرف .. لا بد أن أعرف .

لم يكن فى يدها إزاء اصراره وقد تحول إلى شخص آخر غير شريف إلا أن تنهار وتستعد للسقوط ، ثم عدلت الخطة وتوجهت إلى صدره ، فتلقاها بحياد وأجلسها على السرير ، وسألها ورأسها إلى الأرض بصوت أقل عصبية :

– ماذا جرى ؟

قالت وهى تضغط على كل حرف ليشرب من مرارتها : شىء فظيع .. شىء لم أكن أظن أن يحدث يوما .

دق قلبه من جديد وبعنف وهو يتقدم حذرا ومرغما نحو المأساة : قولى : ماذا جرى ؟

وأخيرا أسلمت أمرها لله أزاحت السد الذى يحجز الفيضان الهادر وكان كفيلا بأن يغرق ويحرق كل ما يمر به ، اشتعلت فيه النار .. نيران كثيرة من كل اتجاه ومن كل نوع وبكل الألوان . لم يجد منها مهربا .. كان حتما أن تلتهم أعصابه وفكره قبل لحمه وعظامه ، وهو لا يستطيع دفعها .. مالذى يمكن أن يفعله مع خصم مجهول ؟ وحتى لو كان خصمه معلوما وهو العالم أجمع .. من الذى يمكن أن يعيد إليه شرفه ! هل الله نفسه يستطيع ؟ .. لم يعد قادرا على الاجابة .. هزها : هل تعرفينه ؟

– لا

– ما شكله ؟

– لا أعرف .

– ما اسمه ؟

– لا اعرف .

– ما رقم السيارة ؟

– لا أعرف .

– أين بيته ؟

– لا أعرف .

– طويل ؟

– لا أعرف .

– قصير ؟

– لا اعرف .. لا أعرف .. لعنة الله عليك

.. لعنكم جميعا ولعن الدنيا وكل من فيها ..

نفذ سكين اللعنة بأعماقه يمزق كل شىء .

تساءل – وهو منهار كخرقة مبتلة – كيف سيطلع عليه النهار وهو بلا حول ولا قوة ، وقد فقد كل شىء فى معركة حقيرة لم يدخلها .. كل مليمتر فى حياته وقّع عليه الكلاب ببصمات الدنس .. مالذى يمكن أن يفعله ؟ مالذى يمكن أن يستفيده الآن من أى فعل حتى لو وجدوا الرجل واشعلوا فيه النار ؟ وكيف يجدوه ؟

إنها لا تعرف أى شىء .

حانت منه التفاتة وهو يجلس على أحد كراسى السفرة الى صورتها وهى تبتسم وعلى صدرها البط الصغير الاصفر وفى الجانب الآخر صورة عبد الناصر يضع رأسه بين كفيه مفكرا فى الحركة التالية .. وقد اشتعل فوداه من حرارة الموقف الصعب .

تنبه أن بداخل فمه شمس وصحراء ، وريقه يمر فى حلقه حريرا فوق شوك .. عانى حتى ابتلعه وبلل شفتيه .

تذكر سليمان الملط وكان يسكن في الدور الأول . قفز السلم حافيا اليه حتى كاد يقع مرتين . فتحت له أمه وأخبرته أنه نام فقط من نصف ساعة ومن الصعب أن توقظه .. طلب منها السماح له بالدخول إليه ، ولم ينتظر موافقتها ..

هزه .. قال سليمان :

– لماذا توقظنى ياحمار .. حطه فى الحجز إلى الصباح .

رجه شريف رجا : سليمان .. انهض ياسليمان .

قال سليمان : هل اشتغل عند أمك !

اندفع شريف : مصيبة ياسليمان .. مصيبة .

هب سليمان الملط وتلفت حواليه .. بانت الدهشة عليه .

– شريف ! .. كم الساعة الآن ؟

– لا دخل لنا بالساعة ياسليمان .. قم معى .. فى بيتى مصيبة .

أفاق سليمان قليلا وقال :

– عندك أنت .. مستحيل .

تنهد شريف : لم يعد هناك مستحيل .. حتى أنا الذى أمشى على الرصيف أو كما يقولون تحت الرصـيف ، بحثت عنى المصائب وتوجتنى .. قم ياسليمان .

استجاب سليمان على أمل أن يكمل يقظته على السلم ، بعد أن لاحظ أنه لا يستطيع أن يفهم وهو على السرير .. ولعله سار فى موكب شريف بوصفه جزءا من حلم ثقيل .. كان يحترم شريفا ويرى فيه

نموذجا للمصرى النظيف الواعى .. – وبإيجاز – انسانا غير مزعج .

مضطرب الخطو ســـار يكاد يجره شريف ، ونصف مخمـــور بالنوم قال :

– تصور ياأستاذ شريف .. كل الجرائم التى تحدث .. تحدث فقط نكاية فينا وحقدا علينا .. واذا لم تكن كذلك فما معنى أن يصبح عدد الجرائم أكبر من عدد السكان .. هذا يعنى أن مرتكبيها ليسوا مجبرين عليها بقدر ما هم يتسلون بأعصابنا وراحتنا .

لم يهتم شريف بالاستماع إلى حكمة سليمان التى لا نفع فيها .. هو نفسه تعود أن يلتقى بالحكمة بالضبط فى الوقت الذى لا يريدها فيه ، وانشغل المسكين بجر الضابط إلى مصيبته .. استطرد الضابط الذى لازال غير جاد فى اليقظة مستسلما للحلم المزعوم فلا يمكن فى ظنه حتى وهو نائم .. أن يجتمع شريف والمشاكل .

– أصبح السادة المجرمون ياأستاذ شريف يفعلون ما يحلو لهم بمزاج .. بفن .. على مهلهم وبتخطيط وابداع وليس اضطراريا أو دفاعا عن النفس أو مفاجأة .. كل شىء مرسوم ومخدوم ومصروف عليه .. لذلك يجب أن تنتقل دراسة الجريمة من الحقوق والبوليس الى كليات الفنون والآداب والبحث العلمى والادارة العليا لأنها نوع جديد من الفـــن والادارة .

اكتفى شريف بأن يقول : كل الذى مَّر بِكَ كوم .. وما حدثُ الليلة كوم آخر .

بالقرب من باب الشقة أوقف شريف محاولاته مع سليمان وقد تجاوزت المتعارف عليه كى يفيق .

قال سليمان : لا تشغل بالك .. كل شىء له حل .

: إلا ما حدث الليلة .

: هل قلبوا نظام الحكم .؟

: ولو حدث ذلك لماذا أدعوك إلى شقتى فى هذه الساعة ؟!

: لكى لا تسمعك أمى

ضحك سليمان على خفة ظله التى استيقظت فى وقت غير مناسب وسبقت عقله إلى الوعى والمشاركة .

: ياسليمان حصلت لى مصيبة .

: أنا سمعت كلمة مصيبة هذه عشرين مرة منذ أيقظتنى .

: امرأتى ياسليمان .

: مدام سلوى .. ماذا بها ؟

: هناك : من اعتدى عليها .

توقف سليمان وهز رأسه ، وبان أنه أفاق فعلا ... ولكنه سأل :

: اعتدى عليها ؟ !

: نعم .

: بالسكين ؟

: ياأخى .. اقول اعتدى عليها .

: تقصد نام معها بالاكراه .

تنهد شريف .. ونكس رأسه .

بدت على ملامح الضابط كل علامات الغيظ المكتوم والفزع .. تمهل لحظات ثم قال .

– أود أن أراها .

أشار إلى حجرتها .. دخل .. كانت كما هى .. مأساة مكومـــــة . طلـــب إليها أن تحكى له الموقف من بدايته إلى نهايته .. فهم منها أنها عضته فى وجهه وهشمت بحـــجر الزجاج الخلفـــى للسيارة وماركتها بيجو صالون .

: أستاذ شريف .. اطمئن لوعاد للاختباء فى بطن أمه سوف أعثر عليه وأخرجه وأجعل أكبر قطعة فى جسمه مثل ظفرك الذى يطيره مقصك .

أخذها معه إلى القسم وحرر محضرا بالواقعة ، وشرع سليمان الملط – بنخوة بهرت شريف – منذ الصباح الباكر يأمر كل محلات زجاج السيارات بضرورة الابلاغ عن رقم أى سيارة أجرة بيجو تستبدل عندهم زجاجها الخلفى .. وطلب من زملائه الضباط والجنود فى كل الأقسام استلام أى بلاغ يأتى بهذه الصفة فورا .

★★★

(٩)

جروه معصوب العينين مقيد اليدين إلى حجرة واسعة تفضى إلى ممر طويل وهبطوا به سلالم ضيقة كثيرة الدرج ثم ساروا فى ممر منخفض السقف وانعطفوا إلى ممر آخر طويل ، انتهى بهم إلى حجرة فسيحة تفرش أجنابها مراتب اسفنجية ومساند وفى الوسط نافورة صغيرة لا تطلع منها المياه .

فى الصدر صورة قرد فى فمه أصبع من الموز وتحته موز ويتدلى من فوقه موز وحوله من الموز أكوام .

أداروا القرد فانفتح باب كبير ، دخل منه الرجال الذين تكدست على صدورهم وأذرعهم كتل اللحم .. نماذج غير تقليدية للبشر .. ربع عراة تهتز فى أعناقهم السلاسل الذهبية .. ويكاد ينخلع المعصوب فى أيديهم الجبارة . سحب آخرهم وراءه لوحة القرد وتبع زملاءه داخلا إلى حجرة اجتماعات فخمة يفرش أرضها السجاد الاحمر وتتألق فى سماواتها الثريات الضخمة ، وفى الصدر كرسى عرش لا يجـــب أن يَمسـَّه إلا ملك بن ملك بن أفاق ، ومن سلالة كانت تأكل مال النبى ، أما جده الأعلى فيمكن أن يكون إلهاً إغريقيا أو معبودا إفريقيا .

وقف أحدالرجال وراء الكرسى المهيب ودق بكعب حذائه دقتين متباعدتين ودقتين متلاحقتين .. رنت الدقات .. سمع الجميع صوت

مزلاج يتحرك .. رفعوا مربعا من السجاد يكسو غطاء حديديا .. ألقوا المعصوب من الفتحة .. أحس بروحه تنزع منه فجأة ، واستشعر النهاية المبكرة وجسده يلقى فى هوة لا يراها .

تلقاه من فَتَح المزلاج فى صدره ، ثم ألقاه على سلم حجرى كان يقف عليه ..

تدحرج المعصوب وتألم ، وبعد أن استقر على الأرض كسجادة مطوية ومهملة قال :

– أنتم حثالة البشرية .. أنا أعرف ذلك دون ان أراكم .

– ها هو المطلوب ياباشا .

قال الرجال المحملون بكتل اللحم الحجرية بأصوات تؤكد أنهم لا يمكن أن يكونوا الا أحفادا مباشرين لديناصور كان على علاقة غير شرعية ببغل استرالى ؟

تحولت العيون كلها – ماعدا المعصوب طبعا – نحو الباشا انتظارا لأوامره .. لم يظهر من الباشا إلا رأسه الذى يقبض بأسنانه على سيجار رفيع أما باقى الجسم فكان داخل برميل ذى كرش كبير . أشار الرأس بالسيجار إلى أعلى .. تقدم رجلان ممن كانوا بصحبة الباشا .. فك أحدهما العصابة وفك الاخر يدى شريف الذى أسرع بالوقوف ، وكأنه بهذا سوف يكون قادرا على المواجهة .

تطلع فى الوجوه والمكان الغريب ، وحاول أن يتصور الطريق الطويل بالسيارة ! وبعده طريق ترابى مشيا على الأقدام وصعود مجموعتين من الدرج وهبوط ثلاث واجتياز ممرات طويلة وقصيرة وحجرات صغيرة

وكبيرة .. ثم هذا المكان وناس آخـرون وبراميل كبيرة .. بحث عن الباشا ، الى أن عثر برأسه .. فوجىء شريف بشكل الرجل .. كان وسيما جدا .. شعره اسود وملامحه متناسقة وابتسامته مريحة وعيناه سوداوان لامعتان .. كل ما فيه يتناقض مع المكان والناس ..

لا بد أنه نجم سينمائى .

أشار الباشا بالسيجارة إشارة ما ، اختفى على أثرها ثلاثة رجال تدل أجسامهم على أنهم لا يأكلون شيئا قط الا عيدان القصب ، جاءوا بعد لحظـات يبسطون فى الفضاء قطعة عريضة من قماش قطنى أبيض .

طلع الباشا عاريا من البرميل وامتد حتى دنا من السقف ونثر من حوله ماء أصفر .. أسرع الرجال يدورون حوله بالقماش الأبيض .. دهش شريف .. أين كان يقف هذا العملاق داخل البرميل .. لا بد أنه كان مقرفصا اذن طيلة هذا الوقت .. وخـز الفضـول عقلـه كى يتجاوز ما هـو فيه ويسأل ..أين كان هذا العملاق ؟ . لكن أقربهم إليه كان بشعا .

جلس الباشا ووضع ساقا على ساق ، ووزن شريف بنظراته ثم قال بعظمة :

– هل تعرف لماذا احضرناك ؟

ارتاح شريف للسؤال لأنه كان يظن أن المسألة ستطول ، وشكل الرجال مرعب بحيث تصور أنه مادام قد وصل إلى هنا فقد انتهى .. لكن ها هو زعيمهم يسأله وسوف يجيبه ، وهو لم يتعود فى حياته أن يكذب مهما كانت الأسباب ، تخـلص من غضبه الذى كان عليه حتى

قبل دقيقة ، ومعاملتهم له كأنه مجرم مع أنهم لاشك يعـــــرفون أنه أستاذ .. لا .. هم لا يعرفون ، والا ما كانوا قد أحضرونى هنا .. الأمر به لبس واضح لأن مثل هؤلاء الرجال يكونون فى العادة - كى يحسنوا الخدمة - بهائم

أجاب بحياد : لا

- لتسحب البلاغ

مؤكد هناك خطأ

- أى بلاغ !

ابتسم الباشا وقال بهدوء شديد :

- حذار من اللعب معى .. ليس عندى وقت .. انتظرتكم شهرين ونصف وهذا فوق الاحتمال .. استهلكت فى هذه المدة كل ما أملك فى عمرى كله من الرقة والذوق .

لم يهتم شريف بالتهديد ، لأن الحوار كله لا يخصه ، وهو ينتظر لحظة انتهاء المراسيم غير المقصودة ليعود إلى حاله دون حتى اعتذار .

- هذا الكلام لا داعى له .. ماذا تريدون منى ؟

- إسحب بلاغك

- أى بلاغ ؟

ركن السيجار على جانب ، و أخذ نفسا عميقا ملأ به صدره

- بلاغك ضد واوا

كما توقع بالضبط .. هولا يعرف أحدا بهذا الاسم حتى يكتب ضده بلاغا .

– حضرتك مؤكد غلطان .

صمت الباشا لحظة

– فى حياتى لم أتحدث إلى حشرة مثلك بهذا الصبر .

توجس شريف : هو صحيح جميل ويبدو من عائلة عريقة .. لكنه هو الحشرة ، لابـد أن أنبهه الى وضعه ، قال بكبـــرياء غير مبالغ فيه :
– ستتحمل نتيجة خطئك .. أقسم لك أنى لا أعرف واوا هذا ،

صرخ الباشا من قلب قلبه وكأنه يريد أن يبلغ صيحته للسماء البعيدة ..

– ألا تعرف أنور القرش ؟

اهتز الرجال وتداخلوا .. وانتزعت من أوتادها أجهزة شريف وتكدست فى قا ع بطنه ..

– أنور الذى

– نعم الذى

دارت الدنيا بالفتى الوحيد ، اذ تذكر مقوض أحلامه .. مصدر تعاسته الأوحد .. كان يتمنى أن يموت هذا المجرم كيا بالنار ، على أن تعود إليه الحياة بعد أيام ثم يدخل فى مؤخرته خازوق لا يخرج إلا من رأسه ليموت أياما ، وبعدها تعود إليه الحياة من جديد ليموت تمزيقا بقطع من الزجاج ، ويحيا ثم يموت صعقا بالكهرباء ويحيا ، ليُلْقى فى زفت مغلى ، واذا مات يحكم عليه بالاعدام شنقا واذا لم يمت ينقل إلى برميل زفت مغلى آخر وهكذا .

صرخ شريف بأعلى صوت يمكنه فى هذه اللحظة أن يصدره

– هذا مستحيل

وبهدوء يتسق مع شكله البرىء قال الباشا .

– سوف تكتشف بوسائلنا أنه أيسر من تناول حبة للصداع .

كان عليه أن يفكر لحظات لمراوغة ثقة الباشا الثقيلة .. لكنه اندفع .

– البلد فيها قانون

– أنا القانون

– البلد فيها حكومة

– أنا الحكومة

تأكد شريف أن هذا الرجل مجنون .. كل هذه الثقة والردود التى تدينه لا تستند إلا الى ضابط أو قاض أو بالاكثر عضو فى مجلس الشعب أو ربما اعتمادا على هذه المخلوقات الآلية .

لم يكن أمامه إلا الصمت إزاء هذا الحصار ، ثم فوجىء بأن الصمت نفسه ليس متاحا دائما حين سقط فوقه صوت الباشا .

– خلصنى

ظل مطأطىء الرأس

–أريد الرد خلال دقيقة على الأكثر .. أنا أعاملك كما ترى بمنتهى الديمقراطية وأعطيك أيضا حرية الاعتراض اذا شئت

استطاع شريف خلال الدقيقة أن يصل فقط بعد إمعان الفكر إلى سؤال يساعده فى فتح ثغرة .

– وما علاقتك أنت بهذه المسألة ؟

– لا شأن لك .

– وأنا لن أسحب البلاغ

– هكذا !

– هكذا

كان فى قرارة نفسه يشعر بقدر من الرضا لمجرد أنه استطاع نطق هذه الكلمات في مواجهة رجل غير عادى ، رجل لا شك أنه محصن ضد الفقر والجوع والمرض والذل .. شكله ينبىء بأن وصية من جهة عليا تقضى بألا يُسْمَح بموته إلا يوم القيامة ، بعد أن يشبع الجميع موتا . رجل من الجمال والاناقة والعظمة بحيث لا يصح أن يموت .

تقلب سيجار الباشا فى فمه ، وفهم الشفرة رجل مربع يسير بتؤدة كدبابة .. تقدم وثبت عينيه فى عينَىْ شرِيف ، وبرق فى الأفق بارق أو انطلق سهم لا أحد بالضبط يدرى ، وإذا شريف على الارض يتفجر الدم من بين شفتيه

حرَّك الباشا سيجاره حركة ما ، فتقدم رجل عادى فغرف كوزا من البرميل ، وصب فوق وجه شريف الذى تنبه ببطء ، ومع ذلك ظل ممددا يزن الأمور التى لا توزن .

انتظر الباشا لحظات ، ثم حرَّك السيجار فتقدم نفس الرجل ورآه شريف وهو يغترف من البرميل الذى كان الباشا فيه ويصب فوق وجهه.. اذن فالبرميل الكبير يمتلىء لنهايته بالخمر .. بصعوبة جلس شريف ..لم تكن لديه الرغبة للقيام بعد ذلك أبدا ، لقد عرف ما يكفيه كى

يموت قبل أن تسوء الامور ويعرف أكثر .. لم يجد لديه عزما يحمله .. كان مطعونا بما يكفى .. ما أكثر الكلاب .

سأله الباشا :

– ما رأيك فى هذا التعارف .. هل ستسحب البلاغ ؟

هز شريف رأسه وقال .

– ليس بعد أن تقول لى لماذا ؟

بات واضحا للباشا ورجاله أن شريف على نحوله ليس سهلا قهره .. سأله الباشا :

– هل تعرف قيمتك ؟

– نعم ؟

– ما هى ؟

– صفر

– أنت غبى

متماسكا قال شريف : قدَّرها أنت

– لازم كل انسان يعرف قيمته

– قلت لك

– انت عندى تساوى ١٠ مليون دولار

– مستحيل .. أنا أعرف نفسى تماما .. أنا مجرد صفر

– كنت صفرا .. أما الآن فقد أضيفت الى يسارك ٦ أصفار وواحد

– أنا لا زلت صفرا

– بعد أن تسحب بلاغك ستعود لحجمك الطبيعى ..

فكر شريف أن يدخل من باب آخر

– هل تعرف ماذا فعل ؟

– .. لا يعنينى ما فعل واوا ، يعنينى فقط ان البوليس قبض عليه وهو قادم إلى بعشرة مليون دولار بضاعة

– لكنه

– طظ

– أليس لك أخت أو بنت .

صرخ الباشا فجأة

– ستسحب بلاغك وإلا دفنتك حيا

– مستحيل

تقلّب السيجار بين شفتى الباشا الفحل .. تقدم هيكل آخر .. من هذه الهياكل التى لا بد أنها لا تأكل الا قمامة طازجة ودواجن ميتة وذئابا نصف مسلوقة .. قبض على قفا شريف بيد واحدة حملته حملا إلى برميل الخمر .. أغرق فيه رأسه إلى نصف صدره .. لم يقاوم شريف الا بعد دقائق ، ثم انتفض وخرج من الخمر المختلط بعرق الباشا وافرازات أخرى .. أعاده القابض عليه . قاومه شريف ، لكن مقاومته كانت كتابة على الخمر .. ظل الرجل الآلة يغطه ويرفعه ثم يغطه ويرفعه نحو عشرين مرة وكأنه تدريب رياضى ، الى أن بدّل الباشـــا ساقيه وحرّك السيجار

حركة ما .. كان الباشـــا هادئا جدا انتظر حتى استرد وعيه ثم قال :
– البلاغ .

لاك شريف فى فمه سنة من المذلة ، وهو يجاهد لاستبقاء حياته .

وبين نفسٍ طالع ونفسٍ هابط هز شريف رأسه رافضا .

هب الباشا واقفا وكشر عن أنيابه واكتسى وجهه بحمرة الغضب ..، .. تراجع الرجال عدة خطوات وهم يرتعدون حتى لقد أشفقوا مقدما على هذا الولد العنيد من سوء ما سيلقاه . وقد بدا واضحا أن الرجل الضخم يمسك بقلوبهم بين يديه كما يمسك بأعنة الخيول :

– أنا لست معلم خردة ياصرصار ، ولا صاحب سلخانة ولا تاجر فاكهة .. أنا لواء بوليس ياكلب .

أحس شريف فى هذه اللحظة فقط بالضآلة الحقيقية وبالخوف ، وأدرك أن الإنسان يمكن أن يتحول إلى وحش فى لحظة وأن التشكيل الإلهى فى البشر بلا حدود وعليه ألا يحكم على مجموعة المدرسين والطلبة والناس البسطاء الذين يسيرون فى الشارع على أنهم كل النماذج البشرية لا .. لقد تبين جهله التام حتى برسالة الإنسان على الأرض .. فإلى جانب رسالته المقدسة الشهيرة التى يدرسونها للتلاميذ فى المدارس ، هناك رسالة أخري ينهض بها العتاة من أمثال سعادة الباشا .

إنها رسالة التخويف والقهر والسيطرة حتى يتم تحقيق التوازن المطلوب بين الخير والشر .. فيبدو أن غلبة الخير سوف تكون نهاية سينمائية بلا معنى .. قفزت أفكاره إلى مناطق أخرى بدأ معها يجد

معنى للعبارات التى كان يسمع عنها مثل السمك الكبير والقطط السمان والحوت والغول . رجال الدولة .. حماة النظام .. لم يعد الجيش والمخابرات هم حماة النظام .. الحيتان والغيلان وأمثالهم هم الحماة الحقيقيون .

أخيرا وبعد رحلة الأفكار المدهشة والاكتشافات المرعبة التى دامت نحو نصف دقيقة .. لا يعرف أحد ولا شريف نفسه كيف قال بثقة شيطانية وغير شرعية :

– إذا كنت أنت لواء .. فأنا أستاذ .

ابتسم الباشا بأسنانه ونظر إلى محدثه نظرة استخفاف .. خلق الله بعد كل هذه السنين شخصا وجد لديه الشجاعة كى يرد عليه ويوشك أن يضع رأسه برأسه .. إذا كنت أنت لواء .. فأنا أستاذ .. كانت كل الألسنة تعيد الجملة على أصحابها من جديد .. لم يحدث هذا .. ساد صمت .. لابد أن البعض تصور انطلاق ألسنة اللهب من عينى الباشا وفيه .. ومع ذلك لم يكن هناك من يحس بالباشا الذى كانت تنهش فى جسمه عشرة مليون دولار لها أسنان .

لكنه قال بكل هدوء :

– أنت أكبر من أن تكون طائشا .. فكر .. سوف أدفنك حيا وبعدك عشرة على الأقل من أحب أحبابك .. فكر .

– أنت لا تملك أى شئ .

قاطعه شريف بحدة لا يجب أن تصدر فى حضرة لواء .. ولواء غير عادى يملك كل هؤلاء الرجال ، ويحركهم كالدمى .. أغلب الظن أن قوى مجهولة كانت تدفع أستاذ التاريخ ليرد بهذه القوة .

قال اللواء الذى دنا من شريف .. وضع يده على وجهه .. فاقشعر جسد شريف حين أحس بها ناعمة ووقحة .

– هل تعلم ما الذى ينتظرك إذا لم تسحب البلاغ ؟

ثم أجاب على نفسه إذ توقع أن شريف لن يجيب .

– سوف تتعرض لعذاب أقله أن ينام معك ٢٦ فقط من رجالى ، وكلهم من هذه العينة التى لم تعد الأمهات تحمل بأمثالهم ، واعلم أن ذلك ليس عقابا كله وإنما ينطوي على فائدة لك إذ سيتم بذلك تخصيبك.. ويمكن عندئذ لا أن تنجب بعد تسعة أشهر ، بل بعد تسعة أيام .

قال للتلاميذ حين حدثهم عن عرابى

– أخطر شئ ياأخوانى إرضاء شخص أو أشخاص على حساب المبادىء ، ولو تأملنا حركة التاريخ سنلاحظ أن الذى يحركها ويحتل أنصع الصفحات فيها هم من دافعوا عن المبادىء . لأنها الكرامة ولودققنا النظر فى كل الأحداث التى يسجلها التاريخ لن نجده يقيم وزنا إلا لكل حركة كانت تسعى لتحقيق الكرامة ، مثلا أحمد عرابى .. دوره النضالي محدود ومع ذلك فقولته " لا " الشهيرة فى وجه الخديوى توفيق جعلت التاريخ يحتفى به .. لا بد من " لا " عالية واضحة وغير مخنثة أو تقبل المساومة .. عبد الناصر قال لا مدوية للتخلف وللرجعية والاستعمار والفقر .. لا للجهل وللتمزق ..

قال شريف باطمئنان الذى يستعد للقاء الله :

– مستحيل .. مستحيل

عندئذ زعق اللواء وقال : خذوه حالا من أمامى .. ادفنوه حيا

انقض عليه الموكلون بالعقاب ودفعوه إلى الخارج ، فقد فهموا أن الباشا لم يعد يحتمل وجوده العنيد وحضوره المزعج ، واستدار اللواء ونفذ من باب جانبى إلى حجرة نوم أسطورية ، هى وحدها كفيلة بأن تشعل الحرب بين الحكومة واللواء اذا تسرب خبر عنها إلى وزارة السياحة .

ترك اللواء جسده الابيض الجميل الناعم الذى لا أثر فيه لشعرة أو ندبة يسقط فوق السرير ، حيث خرج إليه سبعة من الرجال ذوى ملامح ناعمة بيض البشرة .. حليقى الذقون نصف عراة .. نزلوا على كل سنتمتر تدليكا وتنظيفا ظهراً وبطنا .. قصوا الأظافر وحكوا الكعبين وكان منهم اثنان يروِّحان على الجسد الذى يغلى بمراوح من الريش الحنون ، وآخر يحشو سيجارا جديدا بقضيب من المزاج العالى ويضعه فى فمه ويجهز غيره .

★★★

(١٠)

استيقظ من نومه الممزق .. فوجد الشمس تجوس خلال الشقة ، تذكر - والصداع سجان يصر على تحطيم رأسه - كارثته الفريدة ، كان يحسب أن الشمس لن تسطع .. أطل على الشارع من فتحة ضيقة ألفاه كما هو يموج بالحركة المجنونة .. الحياة مصرة على الاستمرار رغم كل ما حدث ، يبدو أنها ستمضى حتى لو لم تجد غير القبور .. جلس منهاراً وهو يحس أن الذى تبقى منه الآن مجرد قشة لاوزن لها .. بناء مجوف وهش ومن الخطورة أن يرى أحدا أو يراه أحد .

بقى فى البيت ثلاثة أيام دون أن يذهب إلى المدرسة .. يشرب الشاى ويدخن ولا يرد على التليفون ولا يكلم زوجته ولا تكلمه .. لا يخرج ولا تخرج هى من حجرة النوم إلا لتصنع لنفسها القهوة أو لتدخل الحمام حريصة على الاَّ تلقاه .

ثلاثة أيام مغموسا فى رائحة الوحدة التى لا تقل بشاعة عن رائحة بول تخمّر ..ثلاثة أيام وهو فى حجرة الصالون نائم على ظهره وساقاه على كرسى .. وكأنه معلق فى سقف وليس نائما على الارض ، يتفرج ويتابع سحب الدخان المسافرة فى المجهول ويرى بعينيه الجدار الأبله مصلوبة عليه صورته وحوله أطار من الوحشة والضياع .

بقيت معه هذه الأيام لا حبا فى المنزل ولا شوقا للنوم والراحة ولكن هربا من العيون والألسنة التى لا شك تعلم .. ولا بد تعلم ، وليس أقسى منها حين تصطاد خبرا ..

ثلاثة أيام كانت المرحلة الاولى فى رحلة غير متوقعة بدأت بجلوسه على عرش الفضيحة .. وهو كرسى فسيح فاقع اللون مزوق بالنقوش والحيوانات الغريبة تتدلى منه أجراس تهتز بين لحظة وأخرى ، متجاوبة مع إيقاع خفى حريصة على ألاّ ينام صاحب الجلالة المفضوح .

ترن الأجراس وتصفق الألوان الفاقعة ويتعالى صياح الحيوانات كأنها تعدو خلف بعضها فى غابة صغيرة .

لم تستطع سلوى أن تواصل مشوار العزلة المهجور ، في صباح رابع يوم من أيام الوحدة / السكين وبعد ليلة مسهدة بالفكر المرهق ، حملت حقيبتها ودفعت خطواتها نحو الباب ومنه إلى هواء جديد .. كان يسمعها وكان يقرها على عزمها ويعرف أيضا إلى أين هى ذاهبة .

أحس بقدر من الرضا عن نفسه لأنه لا يزال قادرا على الصوم .. الصوم عن الطعام والعباد والدنيا كلها .. لا شىء يجذبنى إلى شىء .. تطلع إلى صورة لاعب الشطرنج .. ماالعمل الآن ؟ .. انعكست على مرايا جبهته مجموعة هائلة من الأساطير والحكايات التى صاغت تراث البشر بداية من هرقل وأخيل الى السيدة التى أرسلت السم الى زوجها فى العراق مغموسا بحلوى صنعتها بيديها ورسالة مرفقة تعبر عن حبها الملتهب وقلبها الذائب ، فقتلته هو وخمسة من أصدقائه الذين دعاهم لوليمة حبه ، مرورا بإيزيس وأوزوريس « وأبو زيد الهلالى » وليالى ألف ليلة . غامت المرايا المتألقه على جبهته وتراجعت الأسرار وقصص العمالقة ..تكورت المرايا كأنها فوق نار ، وانصهرت .. سالت دموعا فضية وبقيت الرأس العظيمة مستندة الى الكفين .

كان سليمان ومنير قد زارا شريف ثانى أيام العزلة واعترف سليمان أنه هو الذى أبلغ منير بوصفه أعز الأصدقاء ولا يصح أن نخفى عنه شيئا ..

أعاده منير إلى الشطرنج ولو بعض الوقت لكنه لم يكمل معه مباراة واحدة ومع ذلك حرص منير وسليمان على زيارته ، لتخليصه من هم الوحدة الثقيلة ...

وفى كل مرة كان منير يحضر معه زجاجة بيرة ..

صب كأسا إلى حافته وتجرعه دفعة واحدة .

ورغم فرح شريف بالبيرة والهزة التى استشعرها فى كيانه قال للملط : هل عندك حشيش ؟ تلفت الملط ومنير فى دهشة .. إلـــى أن صرخ الملـــــط قائلا :

– طوبى للذين يشجعون الفساد .. ستكون الباطنية بين يديك بعد لحظات .. هلل منير .

– اذن سنعيش ليلة من ليالى العمر .

قال الملط – أنت تستهين ببلدك وامكانياتها .. بلادك عامرة بالخيرات وأنا شخصيا متفائل بمستقبلها .

زعق فيه منير :

– تحرك ولا داعى للثرثرة

شرد شريف ورأى زوجته هناك .. أمامه مباشرة على الضفة الأخرى للمأساة وبينهما يتهادى نهر اليأس اللزج .. كانت هناك تنحنى

على الأرض تحدق فى موكب شعرها المبعثر .. تمر عيناها عليه شعرة شعرة ، دون أن تحركها الرغبة فى جمعه .

هل يمكن للحشيش أن يزيح عن صدره شيئا مما يحمل ؟ لقد تصور فى لحظة إلهام نادرة أنه مادام بهذا الانتشار فلعله ذا قدرات خاصة .. ولعل عبارة قالها الملط منذ سنة مازالت عالقة فى لا وعيه ..

– أكبر رجال البلد ومن يسيرون أمورها يتعاطونه ، والحشيش بصرف النظر عن سعره وسريته هو الذى ينال الدعم الحقيقى .

كان سليمان الملط قد تمكن هو وزملاؤه الضباط بعد أسبوع واحد من القبض علي الجانى .. وحوّله القسم الى النيابة التي أمرت بحبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق ، وحوّلت النيابة البلاغ إلى الطبيب الشرعى الذى قام بالكشف على سلوى وعلى المجرم الذى يُدْعى أنور القرش وكتب تقريرا تضمن كل آثار العنف والمقاومة . والعض والخرابيش التى بوجهه والكدمات التى بفخذيها والملابس الممزقة وبعض فتات الزجاج المهشمة التى عثر عليها متناثرة تحت الكرسى الخلفى للسيارة ، وحقيبة اليد التى وجدها الملط فى أرض المعركة فى اليوم التالى لنشوبها . أبدى الملط فى كل مواقفه رجولة واهتماما غير عادى ، وهو الذى وفر تقريبا كل الأدلة وسلم كل مرحلة للأخرى ، ولولاه لما استطاعت الأسرة معرفة الطريق الذى كان عليها أن تسلكه فى الظلام الذى يكتنف ردهات القانون ، تكبلهم وتعميهم أثقال المأساة .. أخذ منير يتشممها كالكلب وقال الملط لشريف :

– الأمر ربما لا يعنيك ، لكن لا بأس أن تعرفه : ثبت من مراقبة القرش أنه عضو كبير فى عصابة دولية تعمل فى ترويج المخدرات ،

والقبض عليه يمثل طرف الخيط الذى يوصلنا لهذه العصابة التى حيرتنا سنوات .

انشغل شريف بتأمل منير وهو يفرغ عدة سجائر ويعيد حشوها ويتحدث إليها وإلى شريف فى آن :

– على يديك ستعودأيام المجد والكتابة .. سنة و أكثر وهى تبحث عنى وأبحث عنها .. هل عرفت الآن ياأستاذ شريف السر فى الأنيميا التى أصابت مقالاتى .

شرع الثلاثة يدخلون إلى عالم جديد لم يجمعهم من قبل وتبادلوا فيه الحضور والغياب والنزق .. خامر الجميع إحساس عميق بالانتماء لهذه البقعة من العالم .. هذا وطنهم الذى يجدون فيه ذواتهم ، وقد وجدوها أخيرا

درجة درجة تسلل التلميذ الجديد خارجا من شرنقة الصمت المستبد طلع البحر عليه وهو مضطجع على مرفق الأسى وشاطىء ممعن فى الخواء .. جردته الأمواج من أى رغبة فى التمسك بالعزلة .. ونزلت به إلى فرح المياه الراقصة .. شالته وحطته . دغدغت أعصابه . وعظامه ، داعبت ثدييه وبطنه وأبطه وأظافره ثم تسللت إلى روحه فدلكتها وغسلتها من عفن الفكر الأسود فانتشت بالعذوبة وأمل الخلاص

ثم جاءت الريح حاملة ملايين العصافير المقتولة فألقتها عليه .. حاولت الأمواج أن تخطفه وتهرب به للمدى الفسيح أو للقاع .. كانت العصافير قد أحاطت به ودفنت نفسها فيه .. ودرجة درجة استسلم للموت أو للنوم الذى تتخلله انتفاضات طائشة وعبارات مبهمة ، كلما رأى الجدران

تتحرك نحوه والبلاطات السوداء والبيضاء تتبادل مواقعها ، وسمع طقطقة .. أسرع الى الشرفة فوجدها ترحل ..توقف فى الفضاء حائرا والبيت معه ينتظر عودة الشرفة .

تسللت الجدران خارجة فاحتار السقف أين يذهب ، أشفق عليهم من ثقله فصعد وطار بعيدا وبانت السماء .. غمرهم الضوء الشاحب وسقطت النسمات العليلة واسترخى كل منهم على كرسيه المريح .

كان ثمة رجل يمسك بفرشاة ويرسم على الجدار الوحيد الباقى ..

.. يغمس الفرشاة فى دلو ويرسم .. ثم يبطش بما يرسم تاركا مسافة فى قلب اللوحة .. مضى يسوى فى المساحة الباقية ويتقن فى القطط والورود والنهود والفئران وقرون الثيران و القوارير والقطارات والعيون والمدَى والقلوب النازفة وأوراق الكرنب والقلقاس ، ثم علق الفرشاه على قرن ثور ووقف فى الساحة الخالية بثبات شديد .. سكنت عيناه تماما وتوقف قلبه تدريجيا عن النبض ورئتاه عن التنفس ورق .. رق حتى أصبح جزءا من اللوحة .. ظهر عبد الرحمن شمعة يمشى فى استقامة .. انحنى .. حمل الدلو ومضى .

تجرع شريف كأسه الذى ألفاه ممتلئا يتراقص .. كان الميدان أمامه يتراقص أيضا .. وكانت الرؤية يسيرة بعدما تسللت الجدران .. فجأة ارتفعت القلعة عن الأرض وكأنها قطعة فى مسرح العرائس واهتزت كبندول الساعة .. الميدان لازال بالأشجار يتراقص .. تلفت شريف وهو يحس أنه هو الآخر يكاد يطير فإذا مسجد الرفاعى يعلو وكذلك السلطان حسن وقسم الشرطة .. ما هذا !

المبانى تترك الشوارع وتتحرك .. تتقدمها القلعة .. كل شيء يتحرك بقبابه ومآذنه الوقورة العمارات تستدير وتتبع القلعة .. الناس فى الشرفات يضحكون ببلاهة .. الموكب يمضى ويكبر ويتضخم .. يطول حتى بدا كأنه لا يتحرك .. كل شيء يمضى نحو النيل .. وهناك كان يقف لهم أبو الهول .. كان ضخما بشكل غير طبيعى وقد وقف على قدميه وبقيت أنفه مكسورة واكتست ملامح وجهه بأطياف من وجه عبد الناصر وعينيه .. كانت القلعة تمضى فى ثقة وإصرار نحو النيل وأبو الهول يقف بصلابة وعناد فى طريقها .. يحاول منعها ، لكنها لحظات فقط تلك التى ردها فيها ومالبثت أن أزاحته من طريقها واستأنف الموكب المسير حيث استقبلته دوامة باتساع القاهرة .. وشرعت فى ابتلاع المعالم الراسخة .. اتسعت الرؤية بالخلاء والصمت .وأبو الهول هناك ذاهل وفى عينيه أشباح دموع .



(١١)

قال : يارب

قالت : يارب

لكنهما لم يستطيعا أن يستمرا فى الدعاء .. فلم يكن لدى كل منهما خطة واضحة لمطالبهما من الرحمن الرحيم ... هل يطلبان الستر ؟ ستر ماذا ؟

.. هل يطلبان الصحة أم الغنى ؟ لماذا ؟ أم تراهما يطلبان أن يعودا سعيدين كما كانا قبل أن ترفرف فوق صارى المدينة أعلام فضيحتهما .. على أية حال لا بد من الدعاء .. ولا تملك البقرة المذبوحة إلا أن ترفع خوارها اليائس إلى السماء .. قال : يارب وقالت : يارب . أنت عالم ..

قـــال : أظنها يارب المـــرة الأولى التى لا يعلم فيـــها الانسان ماذا يطلب .. فالمطالب بالذات لها قائمة طويلة يحار الانسان كيف يختار بينها ، لكنه يختار ما يشاء ، وربما يختارها جميعا .

بعد أيام لبى دعوتهما .. استجاب لضراعتهما التى لم يطلبا خلالها شيئا محددا ، لكنهما استندا إلى علمه .. ولذلك ألهمهما الله أن يطلبا الموت .. هذا على الأقل هو المطلب المحدد ذو الملامح ، وهو تقريبا أكثر المطالب اتساقا مع ظروفهما .

الموت هو المحطة الأخيرة وهو فى نفس الوقت المطلب الشرعى بعد أن قفز القطار المسرع فوق كل المحطات ثم توقف عند الفضيحة .. من الذى اختار لنا هذا النوع من القدر ؟

كان قد تصور فى فترة من الفترات أنه مؤهل تماما ضد النكسات وأنه محصن ضد الانهيار ، وأن عالمه من البساطة والقوة بحيث يمكنه أن يبتلع أى مصيبة ، بل إن المصائب نفسها لن تحاول الاقتراب منه ؛ لأنه لا يفكر فى الأطماع التى تجذبها نحوه .. إنه يعيش بمهارة عالية متحكما فى رغباته التى يمكن أن يفضى هوسها إلى التورط فى الكوارث ، وهو لا يفتح بابه أبدا لهذه الريح ومن هذا النوع سلوى .. يارب مالذى كان يتعين علىَّ أن أفعله لأكون فى مأمن ؟ سلوى .. سلوى الآن تتجمع فيها كل علامات الاستفهام التى خلقت فى جميع اللغات البشرية .

جاء شمعة يزوره بعد أن عرف من تلميذ ، أبوه صول مع الملط .. قال له لقد جئت بالضبط فى اللحظة التى كنت أتمنى فيها أن تجيىء .. قال له شمعة .. لا حوار بيننا اليوم إلا بعد أن تعود زوجتك .. تحدث إليه طويلا وألقى فى أعماقه قيمة عودتها وعودته إلى المدرسة.. أرضته جدا زيارة شمعة .. وساوره شعور بالشفقة على سلوى وهى المريضة بالقلب .. ندم على جفائه معها .. لم يقل لها كلمة واحدة .. لم يرضخ لكلام شمعة بقدر ما كان كلامه كشفاً لغطاء قلبه المحزون .. ألم تدرك أيها المتغطرس أنها لم تسع بقدميها إلى حيث يسطع هذا العار ؟ .. لقد انقض عليها الغدر فى المسافة الواقعة بين الواجب نحو أختها والعودة إلى صدرك . رسمت الأقدار ملامح الكارثة لتحجب اسميكما من قائمة السعادة .

منطقة شبه خالية ووقت متأخر وحيوان عربيد .. وهل كان يمكن أن يستشهد شرفها المثلوم هذا الاستشهاد الفظيع إلا فى ركن منزو وتحت أظافر كلب وحشى ، رباه البعض فى حظيرة خنازير على بابها ضوء رسمى أخضر .. وهكذا أحكمت الأقدار التصويب وجاءت الطلقة فى القلب . أفق

ماذنبها ؟ .. كيف تتركها نهب الوحدة القاسية والهواجس والدمار الروحى الرهيب ؟ .. لا تدعها موشكة على الانهيار لأن الحبل الذى يربطها بالدنيا قد تهرأ

هل مثلها يتجرع كل القسوة من الجميع ، وقد عهدناها غصنا مورقا للحب والبراءة ! ..

سل العقل قبل القلب .. ولا تبالغ فـــى البحث عما يحيرك ويبددك أنت بشر .. ولن ينفعك أن تفنى عمـرك وأنت تحدق فـــى الأبـد الممتد أمامك ، ويظل يمتد أمامك ويلوح لك بلسانه .

.. مضى إلى سلوى .. قال لها : هيا .. عادت معه ساكتة تحمل فوق كتفيها وجها منكسرا يرتسم عليه عذاب أزلى ..لم يستطع رغم هدوئه المدحور أن يخفى الشوق الذى يتمرد فى عينيه ويصبو اليها .. تأملها بشكل خفى بحثا عن الملامح التى عشقها وارتوى برؤيتها .. كانت الفتنة لا تزال هناك ولكنها كانت منهزمة وغائمة .

تركها تفتح هى باب الشقة وتبعها .. كان يريد أن يجدد لها ثقته فيها واعترافه بأنها تملك بيته وأشياء أخرى ثمينة .. ولكنها روعت .. على الأقل فى داخلها – لمنظر الشقة .. فلم يستطع شريف أن يكون

مرتبا أو نظيفاً .. ترك الفوضى تهذى فى كل سنتيمتر من البيت الذى كان نموذجا مبالغا فيه للنظام والجمال .. وما الذى كان باستطاعته ان يفعله إزاء الرائحة الوحيدة التي تسبح في الهواء .. رائحة غريبة يمتزج فيها الضعف بالاثم .

دخلا الشقة واغلقا بابها عليهما .. نظرت إليه بعتاب . أخذها بين أحضانه وكأنه أخيرا وجدها .. انهمر دمعها ودمعه ، اهتز جسداهما بعنف .. لم تنبس الشفاه بحرف .. عاتبته بالدموع وسألها بالدموع .. أجابته بالدموع وكانت نظراتها إلى الشقة دموع ، ونظراته إلى لونها الشاحب وعودها الزاوى دموع .

كانت عودتها إلى البيت دعوة لبدء حياة جديدة ، وبدأت بالفعل هذه الحياة ، لكن الليالى لم تستطع أن تستعيد حلاوتها السابقة .. ظلت كل طيورها الجميلة مهاجرة ، لا تريد أن تحط من جديد فى الموضع الذى فيه روعت بطلقات الرصاص .

لم تشهد الأمسيات معارك حربية ولا سلمية .. لأن الود الذى كان بينهما كان ود العشرة والاعزاز المعتق ، وربما التعود ، أما العشق الذى كان يدس لهما الشياطين فى جسديهما اذا التقيا فوق الفراش كل مساء لتعزف لهما أجمل الأساطير الحيوانية وتطرز بها حياتهما ، فقد أصبح الآن صداقة خالصة لا تهفو إلا أن ترى الصباح الجديد فى سلام .

حرص المساء على أن يجمعهما فى فراش واحد كل ليلة لعل عقدة القلوب تنحل ، فتمتد يداه الى جداولها أو تلمس هى ثمره .. لكنهما

بقيا ممددين يجتران طعم الحب تحت ظلال أشجاره العارية ، يتمنيان أن يجدا قدرة على غرس بذور جديدة تنبت بستانا خالدا من الذكريات اليانعة ، وبدا واضحا أنهما يسترخيان على أحد الشطآن المجهولة وقـــد ردهما المــوج الهادر عن لمس المـاء ، فآثرا اللهـو بمحارات الصمت والبراءة المزيفة .

فى إحدى الليالى استيقظت قبل الفجر وقد تاقت إلى صدره ، فألقت فخذها عليه .. استدار كآلة وأعطاها ظهره .. أدركت أنه لازال غير قادر على النسيان حتى وهو نائم .

أذّن الفجر وهى مفتوحة العينين تتحدث إلى السقف عن حالها .. تسللت إلى جسدها نسمة باردة فدنت منه ثم عادت وقد توجست من رد فعلــه ، لكنها كانت ترتعش برغبة حميمـــة فى أن تلمــس دنياها الأثيرة بين ذراعيه ..

لم يبق أمامها إلا أن تقتات من الذكريات .

تذكرت لمسات يده الحنون ، وحين تتذكر يده وهى تمر بخدها يرقص خدها الذى مرت عليه يده فى خيالها ، وعندما تذكرت أصابعه الماهرة وهى تتلمس شفتيها بحذر كأنها تمشى على حقل ألغام توردت شفتاها وتفتحت كوردة مسها الربيع .. وعندما هبطت أصابعه إلى رقبتها بدأ قلبها يضطرب ، وفى الخيال مضت يده إلى مفتتح صدرها فتكورت قليلا عظام ضلوعها وانتفض ثدياها ، وهو يتسلل نحوهما فى نعومة وثقة ، وأحست به فى الخيال يقبض براحتيه عليهما فانخلعت روحها .. ودوى جرس المنبه فى السكون ، فارتعد جسدها كأن الجدران سقطت فجأة من حولها ورآها الناس تحت السماء عارية .

ظلت فى السرير ممددة لتستعيد الهدوء اللازم للقيام .. بقى قلبها الصغير المحتقن يكاد يبدو فوق صدرها وهو يخفق باضطراب .

كان عليها أن تنهض لتعد لزوجها الفطور وتوقظه ليذهب إلى المدرسة.. أما هى فقد أخذت أجازة شهرا .

لم يكن بحاجة كى توقظه لأنه كان مستيقظا قبلها ، وقبل أن يسقط فوقه فخذها الساخن .. وقرر الهروب من صهد حرارته . حاول بعد أن انصرفت عنه أن ينام ، لكن ذلك تعذر تماما ، عملت الأفكار فى رأسه بعنف ، وكلما أوشكت على الانتهاء استدرجت مواضيع جديدة ، واستدعت مواضيع قديمة .. عاملته الأفكار بقسوة ولم تستجب لرغبته كأنها تتحداه .

كان للصباح طعمه المعتاد الذى يحمله منذ ثلاثة أسابيع .. وقد حرص زملاؤه أن يلتقوا به كل صباح ويسألونه عن أحواله .. كانوا فى الحقيقة يبحثون عن أى أخبار جديدة يمكن أن تمثل تطورا فى الأحداث لم يعلموا منها إلا الحدث الأصلى فقط . ولا زال شريف يبدو لهم كأنه يجلس فوق بركان ، ومازالت سجائره التى تشتعل بسرعة وتنطفىء بسرعة تكشف حالة أعصابه التى تنوء بما يحمل من أسرار ، وماهى إلا دخان لنار تتقد بأعماقه وتحرق فيه بوتــقــة السحر التى كانت تجـــذب زملاءه وطلبته اليه .

ها هـــو يمضى بينهم مادة بلا صوت ، وجسدا بلا روح ، وعقلا يفتقد الوهج ونظرات صماء وملامح غائمة وخطوا مضطرباً ولساناً بلا أجنحــــــة .

مالذى كان عليه أن يفعل إزاء ما حدث له ؟ هل ينسى ويقبل على الدنيا كأن شيئا لم يكن ؟ .. ربما كان ذلك جائزا لو فقد عزيزا أو أصابته عاهة ، لكن المصاب هنا .. أثمن من أن يناقش .

كثيرون هم الذين عذروه ودافعوا عن أى ذرة خطأ تنسب إليه ، ومضى بينهم مرغما يتابع أيامه فى سأم محتج ، وبدا واضحا أنه استسلم لوالديه الذين تبنياه .. الصمت والزمن المشمئز .

بحث عنه عبد الرحمن شمعة وسأله عن الجديد ، أخبره أن الكلب استطاع بمحاميه العريق فى تخليص الكلاب أمثاله أن ينكر كل ما اتهم به ، وقدم شهود نفى أكدوا أن الجانى كان معهم فى مدينة السويس منذ يومين قبل الحادث حتى ظهر اليوم التالى .. ولم تكن معه سيارته ، وأنها كانت أمام بيته ، وقدم المحامى صورة البلاغ الذى حرره المجرم بعد عودته من السويس ، والذى قال فيه إنه بعد أن وصل الى بيته أخذ حماما ليجدد نشاطه ، ثم نزل ليركب سيارته ويمارس عمله اليومى ، فإذا بـه يجد السيارة محطمـة الزجاج ، وتحرر المحضر من مصر الجديدة .

قال له شمعة : هل رأيت ؟

قال شريف مستسلما : رأيت

سأله : ما هو الحل المناسب فى رأيك ؟

قال شريف : لا قدرة لى على التفكير .

كان حقيقة يشعر أنه يمتلك ذاكرة منهكة وعقله يخوض فى بحيرات من الطين .

قال عبد الرحمن : البلد تحتاج إلى عمل كثير .. لا بد أن تتكاتف كل الجهود وتتحد كل الأيدى .

قال شريف : ليست مسألة أيدى وجهود .. لا بد من قيادة واعية .. فكر شامل وإرادة .

ابتسم شمعة وهو يقول فى ثقة : توكل على الله .. بلادنا عامرة بالكفاءات والقدرات والعقول المفكرة .

تنفس شريف بعمق وقد أحس بتباشير الأمل .. الأمل الذى تعود أن يتعلق به دائما .. وما أحوجه إليه فى هذه الأيام .

سأله شمعة : ألا زلت غير حريص على صلاتك ؟

كاد يشيح شريف بوجهه خجلا لكنه قال :

أنا ياعبد الرحمن مشتت الذهن وأخشى أن أكون فيها غير خاشع .. أنا غير مؤهل على الاطلاق

قال شمعة : قبلها .. كلنا غير مؤهلين .. هى التى تجعلنا نصلح لها .. هى التى تهذبنا وتصقلنا وتسوينا على قدها .. اترك لها نفسك وسلِّم أمرك لصاحب الأمر ولا تستطيع أن تسلم له أمرك الا بعد أن تستجيب لأوامره وفى صدرها الصلاة .

حاول شريف أن يقاوم .

تمسك شمعة بالحديث قائلا : أنت ياشريف تمتلك إمكانيات نفسية وذهنية عالية وجديرة بأن تجعل منك شخصا آخر .

شرد شريف وهويحس أن الممر ضيق جدا نحو الصلاح والاصلاح .. لا من قبيل التشـــاؤم ولكنه نقص فى ثقته بقدرته على الوفاء بمطالب الله ، مع أنه لا يفارقه .

قال شمعة : هل تثق بالله

اندفع شريف يقول : ماذا جرى لك ياشمعة ؟ !!

سأله شمعة : فهل تثق بى ؟ بوصفى عبدا طبعا ، أجابه شريف بحماس : نعم

فقال عبد الرحمن : اتبعنى اذن وتوكل على الله .. أنا فى انتظارك .. الليلة .. سأعرفك بشخص ذى شأن عظيم .. عالِم كبير لا يعرف أحدا إلا الله :

قال شريف وهو ينصرف إلى حصته :

– سأحضر إن شاء الله

– لن يمنعك شىء

– لا ..

قبل صلاة المغرب دخل شريف أول حارة يمين فى شارع شيخون بالقرب من سبيل أم عباس ، استقبله شمعة واثنان فى الثياب البيضاء واللحى السوداء الكثيفة والوجوه السمحة والأصوات الهادئة .

قال له عبد الرحمن : أحسنت فقد كنا على وشك الانصراف .. هيا بنا .

ذهبوا إلى فيلا جميلة فى آخر شارع شيخون ، فى حديقتها الخلفية الفسيحة جلسة ظليلة تتناثر فى أشجارها لمبات الكهرباء ، خلعوا الأحذية ولبسوا القباقيب الخشبية وتوضأ من أراد ، صلوا المغرب جماعة خلف إمام طويل القامة . رفيع العود عريض الجبهة أبيض الوجه كثيف اللحية واسع العينين رخيم الصوت .. كانت الصلاة متعة لشريف وطقسا جديدا وجذابا . أحس فعلا بأن الصلاة رياضة روحية وسمو

نحـــو جـــــلال الموقف المقـــدس فى حضـــرة العلـــى الكـــريم .

لم يكن يتصور أنه سيصلى مع أكثر من سبعين فردا ، كلهم فى الثياب البيضاء والملامح المتشابهة وخاصة تلك اللحى التى يتسلل الشيب إلى بعضها ، فتبدو أجمل .. المكان كله يعبق برائحة طيبة وهدوء وصفاء روحى .. ألقى الامام ، حديثا تفسيريا حول آية " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " .. حديث رقيق وعميق طاف خلاله بعوالم كثيرة وتنقل بين قضايا عديدة . كلها فى صلب الدين والاخلاق والمحبة .. ماهذا الجمال الذى يلتقى حوله الشباب والشيوخ .. كان يحسب الجلسة كلها نقاشا حادا حول المارقين من المسئولين والحكام .. وتصور أنه فى أول ليلة سيتسلم مسدسا ومهمة .

صلوا العشاء وأعقب ختم الصلاة ، ذكر وأسئلة ولطف وجلال ، ثم انتهى اللقاء ومر الرجال على الإمام فسلموا عليه وشريف أيضا الذى اوشك أن يقبله .. سأله شمعة : هل أنت راض عن جلستنا ويمكنك أن تعود مرة أخرى ؟

أجابه شريف بحماس : كل الرضا .. متى تلتقون ؟

– كل ليلة

– سأحضر إن شاء الله .. أنا فى حاجة إلى أن أشرب من هذا النهر .

– وما رأيك فى الحديث ؟

– ممتاز .. ولكن هل هذا كل ما هناك ؟

– هناك المزيد

– فى الدين ؟

– فى الدين

تمهل شريف ثم قال : وماذا بعد ؟

قال شمعة وهو يستدير عائدا : يكفى ما رأيت

أمسك شريف بذراعه

– عبد الرحمن .. لا بد أن أعرف .. لم أتعود أن أسير فى طريق مجهول .

– التفقه فى الدين هو التفقه فى الحياة .. فهل فى ذلك طريق مجهول

– أنا مصر

– ستعرف كل شىء فى حينه

–أرجو ألا يكون هناك مايسىء ؟

– لا تتعجل

– البداية لا بد لها من نهاية

– نحمد الله أننا نعرف البداية والخاتمة فى الغيب

– ياعبد الرحمن

قاطعه عبد الرحمن وهما بالقرب من داره

– ياشريف .. أسألك مرة أخرى هل تـثق بى ؟

– سلام عليكم

– إذن يسعدنى أن أراك غدا .

– إن شاء الله

فى الطريق مر على أخته أليفة .. لم يجدها .. كانت قد ذهبت لمتابعة أعمال السباكة فى العمارة الجديدة التى تبنيها .

★★★

(١٢)

كانت تصنع لها فنجانا من القهوة .. سمعت طفلا لا يستطيع التحكم فى فيض ضحكاته .. تحولت إلى نافذة المطبخ وكانت عليها ستائر رقيقة ترقص وتعانق نفسها بمداعبة الهواء .. من وراء الستار أطلت سلوى رأت أما تلاعب وليدها فى الشرفة ، تكاد تجن به ولا أحد فى الدنيا غيرهما .

حملت الأم وليدها ودخلت ، وضعت سلوى كوب القهوة الفارغ واستدارت عائدة إلى الشقة لتفاجأ بذاكرتها ترفع أمامها علم الطمث الأحمر ، الطمث .. يانهار أسود .

مر أكثر من شهر على الحادث المشئوم والزائر الشهرى لم يصل بدأ فى عبها يلعب فأر القلق والرعب .. كان غيابه لو حدث .. يعنى أروع أحداث العالم ، لكنه فى حالتها هى بالذات ومنذ شهر فقط يعنى كارثة الكوارث .

دارت فى الشقة تبحث عن شىء .. لو كان عند أمها تليفون .. فأر الرعب يكبر بسرعة ويمتلىء به كيانها كله .. جلست تحت صورتها التى تضحك للبط .. وضعت رأسها فى كفيها لتوقف عبث الفأر .. مستحيل هذا الذى يهددها . . أصبح الذى حدث بالنسبة لها أمرا مضى وفات أما الذى هى موشكة عليه فهو المصيبة الحقيقية .

هل هذه إرادتك يارب ؟ . إرادتك أن يمر على زواجى أكثر من سبع

سنين فلا أحمل من زوجي الذى أحبه ولا أتمنى رجلا فى الدنيا سواه ، وأحمل من هذا الجلف القذر .. لا أظنك ترضى بهذا يارب .. إنها إذا كانت صاعقة على فماذا ستكون على زوجى إذا علم ! ؟ .. إنه يتعذب أكثر منى ..وكيف أرضى للجنين أن يعيش على أعصابى ويأكل من لحمى ودمى .. لا يحق ذلك لأحد إلا إذا كان ولد شريف .

كانت أمها بعد شهر من زواجها قد دعتها فى إلحاح أن يكون أول مولود لها حتى يؤنس وحدتها ، وقالت أختها صحراء ، إن أول بنت ستلدها سلوى سأحجزها لولدي شمس .

وقال شريف : خذوا ماتشاءون من أولادى .. المهم أن أولهم سيكون اسمه

اندفع الجميع يقولون : نعرفه .. نعرفه .

كم كنت أتمنى أن يكون منك يازوجى الحبيب المسكين ليتنى أعرف ما الذى يدور برأسك الآن .. أنت لاشك تتعذب فماذا يحدث لو لم يأت الطمث ؟ ماذا يحدث لو حملت وعرف شريف ؟. لن يكفينى موتى كى أهرب من عذابى وعذابه .

مع ذلك سوف أموت .. حتما سأموت ، ويعيش شريف ليتألم .. أم تراه سوف ينسى إذا اختفيت !

هل يمكن أن يكون كل ما أنا فيه مجرد كابوس لعين ؟ هل تحدث المفاجأة الالهية المدهشة واكتشف أننى الآن نائمة ، ويجثم على أحلامى ذلك الكابوس .. ؟ .. أتمنى أن أكون نائمة .. كيف أعرف إذا كنت نائمة أو واعية ؟

سمعت جرس الباب ، أسرعت كأنها تهرب من أفكارها التعسة .. لتفتح الباب .. وجدت أمها .. استقبلتها بالدموع وتلقتها أمها فى صدرها ووراءها عم فريد يقول :

– ندخل أولا وبعدها افتحوا الحنفيات

قالت سلوى : اتفضل يا بابا .. شريف خرج مع صاحبه شمعة منذ الصباح .

تركته يجلس فى الصالة وسحبت أمها إلى حجرة نومها وأغلقتها عليهما :

– الحقينى يا ماما .. الدورة لم تصل .

بهتت الأم .. كانت قد نسيت الحادث .. ولما تذكرته ارتعدت خوفا .. اضطربت رأسها بالموقف المفاجىء .

المفروض أنها الأم التى يتوجب عليها أن تكون المستشار .. أسرعت تسألها :

– منذ متى ؟

– موعدها فات منذ أسبوع .

– لا تقلقى .. أحيانا تتأخر .

كانت تعرف أنها تكذب وكانت تعرف أن ابنتها تعرف أنها تكذب لتخفف عليها عبء اللحظة إلى أن يأتى الله بالفرج ...

لم ينفعها كلام أمها ولطمت خديها .

– يا نهار أسود .. يا نهار أسود .

ندبت بسبابتها كمن تبكى على ميت عزيز .

– يا نهار أسود .. يا نهار أسود .. أين أذهب ؟ .. مصيبة مصيبة أكبر من هذه الدنيا بكاملها وقعت فوق رأسى .

– يا ابنتى إهدئى .. أحيانا العادة تتأخر .. اصبرى أسبوعا آخر .. وبعدها سيأتى الحل .. أنا متأكدة .

– حل .. من أين يأتى الحل ؟

– استغفرى .. إهدئى واستغفرى .

– يا رب أنت عالم بى وبزوجى .

– ربك ستار .

– أفرضى لا قدر الله حصل .

كادت أمها تنهار .. وبدا أنها لا تستطيع أن تجيب ، ثم قالت لتهرب من الفكرة القاسية .

– ساعتها يحلها ألف حلال .. لا تقدرى البلاء قبل وقوعه .

– لقد وقع وانتهى الأمر .

عادت تندب الميت الغالى .

– يانهار أسود يا نهار أسود .

انكسر قلب الأم الصامد لنشيج ابنتها . فرت الدموع من عينيها وهى ترى ابنتها تتمزق أمامها .. انكفأت سلوى على السرير تجهش ببكاء مركز وصاخب يغترف من قلوب عشرة نفوس مقهورة ومعذبة .

لم تحاول أمها أن تواسيها . بدالها أن الأمر لا يحتاج إلى مواساة ولكنه فى حاجة ماسة لبكاء لا يتوقف . فانهارت هى الأخرى باكية

يمزقها شعور بالأسى والاشفاق على ابنتها مشوب بسؤال لا تجسر على توجيهه إلى الله .

– ألم يكن يكفى أن زوجها حرمها من الولد حتى تصيبها هذه المصيبة فتهدد حياتها إلى نهاية العمر .

حاولت أن تطرد هذا السؤال الغاضب بما فيه من شبهة اعتراض على حكمة الخلاق العليم .. عادت إلى قواعدها الدينية على عجل ، قائلة وهى تمسح دموعها التى بلغت شفتيها وشربت منها بضع قطرات :

– استغفرك يا رب .

رغم هذه المناحة السرية داخل حجرة نوم سلوى ، هذا التحطيم الذى أصاب قلب البنت وأمها بسبب تأخر الطمث فى الظهور ، فإن المأساة الحقيقية يمكن أن يدركها بسهولة كل من عرف عم فريد ، كان يجلس فى الصالة غير عظيم كعادته ولا واضعا ساقا على ساق وإنما مكوما « كبؤجة » ملابس مهملة .. مظلم الوجه باهت الملامح لا ينطق بحرف ولا يأتى بحـــركة وكان لا يفتأ يـــداعب الذباب الذى يقف على وجهه .

ماضيا فى شروده يتأمل الصور والسقف وهو غير مدرب على التأمل ، ولعله كان يهرب فيها من الوحدة والفكر ، ثم يضع رأسه على كفه ويمعن فى محاولة الغياب .

بينه وبين نفسه حمد الله لأن شريفا لم يكن موجودا ، لأنه لم يكن خبيرا بالمواساة وبالأحاديث التى تدور حول ضرورة النسيان والاعتماد على الله والصبر .

كان مؤمنا بها تماما ولكن غير قادر على ترديدها ، ولم يجرب أن يقولها مرة .. وفى المرة الوحيدة التى حاول فيها أن يخفف عن زميل ماتت زوجته تداخلت العبارات والتبست ، فأخطأ وحاول التصحيح فأخطأ ، وتوالت الأخطاء حتى اضطر للقيام والانصراف .

من يومها لا يقدم العزاء لأحد إلا وسط مجموعة ، وهى التى تتحمل ترديد عبارات المناسبة ، وينشغل هو فى ضبط أعصابه وكبح لسانه حتى لا يقول نكتة .

تغييرات كثيرة لم يكن أحد مهما تشاءم يظن أنها تحدث للعم فريد .. كان الكل يتصور أنه سيطلق النكات ويحكى الطرائف حتى وهم يدفعونه يوم القيامة الى جهنم ، محاولين أن ينزعوا معطفه الأسطورى .

فغير مسموح إطلاقا الدخول إلى جهنم بأى ملابس وخاصة معاطف العاملين بالسكة الحديد .

كان العم فريد هياجا إنسانيا جميلا ، وكان قدومه فرحة للكبار قبل الصغار كما كان بالنسبة للمسئولين فى السكة الحديد .. ولم تسمح الفرصة كى يعرف الكثيرون مالذى كان يحدث عندما يذهب لزيارة ابنته صحراء التى تنجب كثيرا دائما قبل المدة القانونية .. كانت تمنع أولادها من أن يطلوا من الشرفة خشية أن يروه وهو قادم ، فيسقطوا عليه ليلتقوا به فى أقرب وقت . وإذا دخل تسلقوه كأنهم قطط تتسلق شجرة .

★★★

(١٣)

فى سيارة نصف نقل جلس فى الكرسى الخلفى رجلان بينهما شريف مقيد اليدين معصوب العينين ، انطلق السائق بهم دون كلمة حتى بلغوا ڤيلا مهجورة فى آخر جبل المقطم . مضوا به إلى فناء فسيح، أرضه غير مستوية كأنه كان مسرحا لحفائر تبحث عن آثار تاريخية أو معالم چيولوچية . فى أحد جوانبه شجرة وحيدة لا أحد يعرف قصة وجودها هناك فى هذا القفر .

على بعد قريب منها حفرة واسعة ، ألقوا فيها شريف بعد أن رفعوا العصابة وقيدوا قدميه بسلسلة حديدية لها قفل ومثبتة من نهايتها بقاعدة خرسانية مما يدل على أنها دائمة الاستعمال ، ولم يكن شريف أول المختطفين ولن يكون آخرهم .

بعد نحو ساعة جاء اثنان وألقيا فوق رأسه صفيحتين من القمامة قال أحدهما .

- أنت الآن لا شك جائع .

خلص رأسه بصعوبة من القاذورات التى أحاطت والتصقت بوجهه ، ثم جاء ثان وصب على رأسه ملء دلو من سائل أصفر وقال له : قد تحتاج أن تشرب .

نفذت رائحته إلى أنفه رغما عنه .. كان الدلو مملوءا بالبول .. هل يمكن أن يكون الانسان قد وصل الى هذا الحد من البشاعة ؟! وأجاب على سؤاله بأن الفضل كله للعقل الذى منحه الله للانسان .. تملكه الغيظ الذى لا يقدر على تفجيره .. فتحدث إلى نفسه عن العقل الذى حول مساره .. وبدلا من أن يكون مثل جرار يصعد بعربات البشرية الى أعلى ، فإنه يتجه الى أسفل .. أسفل مكان ومكانة .. هل لهذا كله من نهاية ؟! .. ومن الذى يتعين عليه أن يضع النهاية ؟ لعله الله .. مؤكد أنه هو .. إذن لماذا يتفرج علينا ونحن نتردى ؟ . ما الذى يجده فينا من جمال أو تسلية !

تنهد وبصق من حصار البول والقمامة .. تأكد الآن أنه بالفعل صرصاركما قال اللواء .. أقل من صرصار .

الصرصار يجرى فى أى اتجاه يشاء ، يختبىء ويظهر .. يأكل ويلعب أيضا بل ويصرخ ، وربما يموت .. أما أنا .. أنا ماذا ؟

أنا منذ شهرين ونصف لا شىء ... لا شىء على الاطلاق .. بل اللاشىء أفضل لأنه لا يدرك أنه لا شىء .. وأنا على يقين من تفاهتى وهوان حالى . من فعل بى هذا ؟ وقد كانت الحياة تمضى برغم بعض ظروفها المعقدة رائعة وشائقة .. لقد حدث كل شىء فجأة .. فهل حقا يراقبنا الله ويرعانا !! سلوى . هاهى سلوى تطير .

سلوى .. ذلك الغصن المورق من الحب ، يلتف حول العالم الفظ ويلهمه أحلام البراءة ..

توافدت على عجل أسراب الذباب وبدأت تكتشف الضيف الجديد .. ذباب كبير كالنحل له لدغ ، أخذ يلعق كل ما يجده من قمامة ثم يقف

على عينى شريف . وأنفه وأذنيه ليبتلع ما أكل ويتأمل الضيف ، تفد الأسراب بعد الاسراب الى القمامة لتحمل ما تقدر عليه وتجد راحتها فوق معالمه وبالضبط فوق أنفه وفى مواجهة عينيه المتوجعتين .

أجنحة الذباب فضية رقيقة ، تبرق تحت الشمس وتتسلل فى رقتها عروق زرقاء ، وعيونها تتحرك بسرعة حركة غير مفهومة وأفواهها لا تكف وأياديها .. تلك الشعيرات الرهيفة تعمل كأذرع أخطبوط نشيط ..

على رمش عينه وقفت ذبابة .. لم يستطع أن يحافظ عليها مفتوحةلوقت طويل ، قبل أن يفكر فى إغماضها كانت الذبابة قد اختفت. نسى كل شىء فى حياته .. وفرغ عقله من كل فكرة ، وشرع هذا الضيف الجديد يتأمل أهله الجدد وسكان حيه .

بعد قليل تسلل إليه فأر ، نفذ بلا تحفظات إلى صدره ويبدو أن رائحة بعينها استدرجته الى هناك .. تقلب شريف .. لكنه أدرك بعد لحظة أنه ليس ثمة داع لذلك .. الفأر حر يتجه إلى حيث يشاء ، وجاء ثالث ورابع.. فئران كبيرة كأنها لا تأكل إلا الأرانب والكلاب ولعلها تأكل الرجال .

لابد أن هذه الحفرة شهدت كثيرين قبلى ، أرغموا على الدفن فيها .. فالشجرة هنا قديمة والسلسلة أيضا .. وعند وصولى لبى الذباب الدعوة التى لم توجه له ، ولعل القمامة أرسلت اليه بطريقتها ، فقدم دون أبطاء ، وها هى وفود الفئران أسرعت ترحب وتتعرف على الضحية ..

إذن فهذه الحفرة لها سجل حافل ولابد أن لها مكانة فى تاريخ البلاد وتحتاج بعد رحيلى الى عالم أثرى يرافقه مؤرخ وچيولوچى وحانوتى لعمل حفريات ذات قيمة ، ولابد أن أعظم من قدموا خدمات لبلادهم سنعثر هنا على جثثهم .

السماء صافية وأشعة الشمس مسنونة وكأنها تشارك فى إنضاج الذبيحة ليسهل تناولها ..

جاء رجل مربع وهو المخصص للقمامة وألقى عليه دلوا ممتلئا ، وجاء الأطول وصب فوقه دلوا من البول .. صرخ

– من أين لكم ياأولاد الكلب هذه البشاعة ونحن فى الصحراء .؟.
أجاب المختص بالبول على الفور وكأنه كان يعـــرف مسبقـــا أنه سيسأله :

– ألم تعرفه ! ؟ إنه بول أمك

يداه مقيدتان وقدماه .. ماذا يمكنه أن يفعل ؟ .

ليس لديه أية قدرة على المقاومة أو الفعل .. لا بيده ولا باللفظ ولا بالدموع ولا حتى بقلبه .. أى مقاومة هذه ولمن وهو لا يستطيع أن يدفع الذباب الذى يلح عليه ويمر على كل أعضائه ، متنقلا بينها وبين القمامة .. والفئران التى لا تكف عن الدخول إلى صدره وقضم أطرافه وأذنيه .

ها هى السماء تتفرج وأشعة الشمس لا ترحم .. كان على الطبيعة .. أن تجاملنى بأى موقف .. أن تتكدس الغيوم وتمنع الشمس من قسوتها الزائدة .. أن تمطر السماء فيختفى الحارسان اللذان لا تغفل عيونهما عنّى لحظة .. أن يبرق برق يخطف أبصارهما .. ألا أستحق أن يهبط ملك من السماء فينقذنى من الشياطين ؟ ينزل حصان لامرئى أمتطيه ويحملنى بعيدا ، فينقذ إنسانا من بطش أخيه .

لماذا لم تعد تحدث هذه المواقف العظيمة للبسطاء من البشر الذين لا يملكون إلا قلبا طاهرا ؟ هل لا بد أن يكون نبيا حتى يحظى بالرضا والمساعدات المتميزة ؟ . لم يعد هناك أنبياء .. وها أنذا وحدى مع البشر السادة .

ها أنذا فى قلب العزلة الأبدية التى أستحقها وتستحقنى .. علىَّ

أن أروض نفسى على الاقتران بها ، قد يبدو الاستسلام لها صعبا فى البداية لكن الأمر سرعان ما يصبح عادة .. بل كيفا .. دون أن ينتبه ركبت ثلاثة فئران على شفتيه وأخذت تلعقهما وكأن الشهد منها يسيل .. مضى فى تأملاته دون أن يعبأ .

اكتشف فجأة أن الزمن الذى بدا له مرحا ومنطلقا على سجيته يعيد التعرف على نفسه ، إنما هو زمن هارب بجلده من عصور الشياطين ليسقط بين يدى أحفادهم الأفذاذ .

حاصرته الهواجس والأسئلة وعلا صخبها حتى غدت حمما أبدية تتفجر من أعمق أعماقه لتعلو حتى يظن أنها رحلت فإذا بها تسقط عليه من جديد ، بقوة وعنف .

بحث عن الفئران التى كانت تمتص الرحيق من شفتيه .. لم يجدها .. أين تراها ذهبت ؟ هل ستعود ؟ .. كثرت الفئران .. فلم يعرف أيها كان يقبل شفتيه .

إنه جوعان وظمآن ومرهق ومحطم ومجوف ومتهاو .. تراءى له موج تعاسته هادرا يضرب شواطئه بعنف ويهز قواربه بقسوة .. أدرك أنه ممثل الخلق أجمعين الذى سيحمل عنهم كل المقرر عليهم من تعاسة .. ما أحوجه الآن إلى سيجارة ودلو شاى !

شرد وأظلمت عيناه وسرى فيه خدر فاستسلم منهارا .. لكنه رأى حارسيه يسحبان امرأة مملحة من برميل ويأخذان فى التهامها .. شهيتهما المفتوحة لم تشفها امرأة كاملة الأعضاء .. شرب الأول وأخذ نفسا عميقا وتجشأ ، نهض الثانى فشرب ثم تجشأ ، وسحبا من البرميل امرأة مملحة أخرى .. وضعاها أمامهما وشرعا يقضمان أعضاءها .

كان الأول يبدأ من أعلى والثانى يبدأ من أسفل ليلتقيا عند المؤخرة .. لم يكن ذراع المرأة يحتاج لغير جذبة واحدة ينخلع بعدها من الكتف ليمسكه أحدهما بين يديه ويأكله على مرتين ، ثم الذراع الثانى على مرتين وكل ثدى على مرة والكتف على مرة ، وباقى الصدر على مرتين والظهر على ثلاث مرات .. أما الثانى فكان يأكل الساق والقدم على ثلاث مرات والفخذ علي ثلاث مرات ويقتسمان المؤخرة .

شرب كل منهما ثلاث زجاجات من البيرة وتجشأ وبال فى الدلو نحو نصفه وعثر شريف أخيرا على إجابة لسؤاله .. إلى البرميل تحاملا وسحبا امرأة مملحة ثالثة وألقيا كل النفايات فوق الأستاذ .. أفاق شريف مذعورا وقد آلمه مشهد النساء المملحات ، جاء المساء وكان حتما أن يجيىء ، لكن المؤكد أنه جاء مبكرا عن موعده .

هل يمكن وسط هذه القمامة والفئران والوحشين الآدميين أن يحتفظ ببقايا إرادة تساعده على ألاّ يستسلم للهزيمة ؟ هل يمكن اذا امتلك بعض الارادة أن يستبقى فى رصيد أعصابه قدرة ولو باهتة على التفكر ؟

هل يمكن بالمتبقى من الفكر الخامل أن يجد سبيلا للمقاومة ؟ .. ليس ثمة أمل فى ذلك .. ومادام لا يمتلك القدرة على المقاومة فعليه أن يسرع بالموت فأحقر الميتات يموتها من لا يقاوم .

بينما كان غــارقا فى عزفه المنفرد سقط فوقه المزيــد من القمامة .

لم يتحرك ولم يشعر بتغير فى خطة عقابه .. لا يزال محط اهتمام الحارسين العجيبين .

قال الحارس لزميله : لقد انتهى قبل الموعد .. هذا ما كنت أتمنى أن يرحمه الله من الباشا الملعون ولو بالموت .

جلس المربع أمام الحفرة وسحب عودين من القصب وأخذ يمص ويختلس الكلمات بين الرشفات المدوية فى الليل الساكن ، .. قال :

– سيُجن الباشا .

– يجب أن يجن .. كل أمواله وضعها فى العملية

يسأل المربع الذى يبدو أكثر غباء .

: ألم يطلب من مساعد الوزير أن يُهرِّب واوا ؟

أجابه الأطول الذى أعجبته أخيرا مسألة مص القصب فسحب عودا :

– وعده بتهريبه بعد أن يكتب له الباشا أولا جنينة التين التى فى العجمى

– وهل كتب ؟

– كتب

– ولم يخرج واوا

رشف الأطول بعمق وقال :

– طلب مساعد الوزير من الوزير التدخل ، فرفض بسبب بعض الظروف السياسية الحساسة .. قرر مساعد الوزير البحث عن وسيلة ثانية .. وعدته رأس كبيرة بتهريبه إذا وافق المساعد على الانسحاب من مناقصة السفن الخردة التى تنوى الرأس الكبيرة ابتلاعها .

سأل المربع بعد لحظات وقد أحس بالدوران الذى لفه كدوامة :

– والنهاية .. أنا تعبت وقرفت .

– النهاية إن الباشا صبر كثيرا حتى أصبح على بعد محطة واحدة من مستشفى الأمراض العقلية .

سأل الغبى – والحل ؟

قال الأطول وهو يرمى مصاصة القصب على شريف :

– الحل أمامك

★★★

(١٤)

بعد أسبوع آخر لم تعرف فيه سلوى الا الفكر والفزع .

والاستسلام التام لخطة مجهولة لتحويلها إلى حشرة ، جاءت أمها فلم تجد الطمث فى الشقة .. كان لا يزال مصرا على استبقاء السكين فى قلب المطعون لينزف الدم من القلب والروح . لا من أى مكان آخر .. بدت الأم أكثر تماسكا هذه المرة وقد تأكدت أن ابنتها حامل .. وعزمت على أن تنقذ ابنتها مما يحيق بها .. لم يعد هناك مفر من الاجهاض .

اقترحت عليها بعض الوصفات البلدية ، واندفعت ابنتها وراءها تبحث عن النجاة وتجرب وتفشل .. لا الطمث ينزل ولا الاجهاض يخلصها من كل آثار واوا التى تقوى وتعمق جذورها كل يوم .

اعترفت الأم بينها وبين نفسها أنها تواجه أكبر مصيبة فى حياتها ، بل إن ابنتها المسكينة تتعرض لاكبر مصيبة يمكن أن تلحق بامرأة .. حاولت أن تبعد عن رأسها الخاطر الذى هاجمها وأفزعها باحتمال أن تفكر سلوى فى الانتحار .. لم تفقد الأمل فى الله الذى تتصور فى كل لحظة أنه سوف يبعث اليهم عددا من ملائكته ليحلوا المشكلة على نحو رائع وكريم يليق بقدراته الالهية .

زارت بعض الأطباء رفضوا جميعا هذا العمل اللانسانى ، وأخيرا وافق الثامن أو التاسع وكان قد مر شهران .

بعد أيام فوجىء شريف وهو فى المدرسة بالناظر يستدعيه إليه فورا ولما ذهب قدم له سماعة التليفون .

– تعالَ فورا .. سلوى بالمستشفى فى حالة سيئة .

لم يهتم بأن يعرف اسم المتحدث .. بالكاد تنبه إلى ضرورة السؤال عن اسم المستشفى وأسرع اليها تنهشه الهواجس .. هل يكون قلبها ؟ .. لم يحدث فى أى مرة أن تعبت فجأة ووصلت حالتها إلى ما يوصف بأنه سىء .. هل تكون قد فكرت فى الانتحار ؟ لا أظن .. لقد حاولت فى الفترة الأخيرة مساعدتها على التخلص من كآبتها .. لا أمل أمامنا لنستمر فى الحياة الا أن ننسى ونهيىء جوا مناسبا لجروحنا كى تندمل .

مضى يســأل الغــيب الذى لا يجــيب ، ويفتــش فـــى المجهول بلا جدوى ، لماً لم يجد فى نهاية كل الطرق إلا حوائط مسدودة لجأ الى الله .. طالبا فقط الستر .. ويكفى ما فات .

بلغ المستشفى .. منذ عهد طويل لم يدخل المستشفى .. تقدم نحو البناء الضخم وهو لا يزال يطلب الستر مستحييا أن يطلب أكثر .

طلعت عليــه مــبكرا روائح كميائيــة صاخبــة .. لعبت بأنفــه وأعصابــه .. استقبلته ممرات رنانة وسلمته إلى ممرات أخرى طويلة .. كل شىء أبيض غائم . الملابس والملاءات والجدران .. لم يحاول أن يمسح عرقه ، لم يحاول أن يتنبه اذا كانت على وجنتيه دموع أم لا .. كان يسأل عن الدور ويجرى ، رقم الغرفة ويتلفت باحثا عنها .. كل ما كان يراه يسبح فى الضباب .. الرؤية واللون والسمع والفهم واللمس والقبلات والدموع والحقيقة .. وقبلهم جميعا كانت السلامة أيضا ضبابية

التقى بسيدات كثيرات يدخلن المستشفى وبطونهن منتفخة والتقى بأسر كثيرة خارجة تدفع أمامها فى عربات صغيرة أو يحملون على أيديهم الأطفال الطازجين وقد تقرر أن يخرجوا للحياة .. الكل يجرى ليلحق بالحياة قبل أن تفر ..

تخلص من أفكاره وهو يطلب ويقرأ الأرقام التى تعثر فى ضبطها، ودخل غرفا بالخطأ عدة مرات واعتذر بلا اهتمام ، إلى أن بلغ حجرة سلوى فإذا هى غائبة عن الوعى وفى الركن أمها واختها والممرضة وطبيب يفحص النبض ويعلق زجاجتين فى إحداهما دم .. مؤكد دم .. ومثلث بلاستيك على أنفها .. الدموع فى عينى الأم تنهمر بلا رحمة .. ولون سلوى شاحب تماما حتى ليصعب التعرف عليها .

طلب منه الطبيب البقاء فى الخارج لحظات .. سقط على أريكة بيضاء منهارا دون أن يتنبه أن الأريكة الأخرى عليها عم فريد ومفرح .

نكس رأسه وخمن .. ما الذى يمكن أن يكون قد أصابها .. متى يخرج الطبيب ليعرف ؟ .. رأى الأرض لأول مرة مفروشة ببلاط أبيض وأسود وليس أبيض فقط كما تصور .. وأفاق على فريد ومفرح الى جواره يربتان على ظهره .

– خيراً ان شاء الله .. قل يا رب .

إنه لا يملك الا أن يقول هذه الكلمة .. الكلمة الوحيدة المطمئنة فى هذا العالم العجيب .

خرج الطبيب وسأل :

– أين زوجها ؟

أشار عم فريد على شريف .. فقال الطبيب :

- أخطأت خطأ فادحا بموافقتك على الاجهاض .. كان عليك أن تكون أكثر حكمــة .. ما دامت قد حملت لم يكن ثمة داع للاجهاض .. المفروض أن يكون المنــع من البدايــة .. لا فى منتصف الطريق .. أما الآن .. فالله معها ومعكم .

مضى الطبيب كأنه ينسلخ من لحم شريف الذى سقط على الأريكة ... إجهاض .. وهل حملت ؟! .. ممن ؟! لابد من واوا .. واوا .

أنا الذى لم أهتم بعلاج نفسى حرصا على قلبها .. أطبقت يد على صدره فلم يستطع أن يلتقط أنفاسه .. تنهد بلا جدوى ثم سقط مغشيا عليه .

أسرع مفرح إلى الطبيب الذى نقله فورا إلى غرفة خالية ، وصب الماء على وجهه وأعطاه حقنة .. تماسك بعدها شريف وشرع ينقل النظر الغائم بين فريد ومفرح .. كان صعبا مشهد الدموع التى انهمرت من عينى فريد .. دموع تكاد تنطق .. ولعلها أول دموع لهذا الرجل منذ أن خلق ..

يحب سلوى وشريف ويشفق عليهما ، ويسعده ذلك القدر من الرضا الذى يتحليان به .

أما مفرح فكان رجلا يصلح لكل العصور الحرجة .. رجلا ذا أعصاب غير قابلة للتوتر .. كان بالطبع متأثرا جدا لحالة سلوى وشريف وخاصة أن ما جرى لهما حدث يوم ميلاد ابنه شريف ، لكنه لم يتعود على البكاء ، ويبدو أن دموعه لا يحركها إلا البصل .

كان شريف يسبح فى بحيرة من الطين كونتها الكارثة واستسلمت لها زمجرته الداخلية وصمته وذهوله .. حاول الخوض فى البحيرة فلم يستطع ببقايا عقله الواهن أن يتحرك من مكانه اليائس .. حاول أن يتذكر حتى بداية الأحداث وتفاصيلها .. فلم تسعفه الذاكرة المنهكة التى سحقتها خيول الضغينة والغضب .. لم تنجب منى بعد سبع سنوات وأنجبت من الغريب فى دقيقة .. لم تنجب منى أنا الذى أحبها ، وأنجبت من عربيد .. أصر على أن ينهض ويبرح الغـرفة البلهاء ويذهب الى سلوى .. اصطدمت به الممرضة وهى تخرج مسرعة .. ثم عادت بالطبيب ولحق به طبيب آخر ثم دوَّى صوت نسائى كسكين يعلن النهاية القاسية فى عنف لا يرحم .. ودوى صوت نسائى آخر .

أسرع فريد ومفرح وشريف ..

لم يكن من حقها أن تغادره على هذا النحو المتعجل ودون الاتفاق على ذلك .. كيف تهجر الشخص الذى تعلق بها وما زال حتى بعد أن تعثرت فى طريق مظلم ؟!

انكفأعلى السرير وقد أحس لأول مرة بالظلم .. هرب الضوء من عينيه .. وفرغ الطريق من تحت أقدامه .. الى أين سيمضى بدونها وكيف تكون أيامه ؟ .. لقد جرب الفراق مع أمه وأبيه ، ما الذى يبقى منها أنيساً فى عزلته الأبدية ! . كل شىء يمضى على عجل .. هل قرر الله أن يضم السماء إلى الأرض وينهى اللعبة ؟ اذا كان الأمر كذلك فلا داعى للبكاء .

هيا أيها الموت .. أشياء كثيرة تنتظرك .. هل يا ترى أنت الذى تجذب اليك الأحياء أم أن فيهم ما يجذبك اليهم ؟!

أيها الموت ليس لك مع سلوى دور .. هى التى فضلت الخلود على أن تعيش وحيدة ، وقد فقدت قدرتها على الحب والأمان ، حتى بين أحضانى ..إلعب لعبتك مع غيرها .. حاول مرة أن تختار زبائنك من ذوى الحول والقوة .

كانت وهم يحملونها تلوح له بقلبها ، وكان تابوتها يقطر على المشيعين حبا غير مرئى ، جعلها خفيفة توشك أن تطير .

سار وراءها مع السائرين يودعها بالأسى والتنهدات ودموع توقفت لتعد بالانتقام الرادع ، وبعد أن ساوره الشك فى أن يحسم القضاء الأمر يوما .. والشهور تمر والمحكمة بما فيها من قضاة ومحامين ووكلاء نيابة يلوكون أحداثها المتحللة ، دون أن يتخذوا إجراء محددا إزاء ما جرى لنموذج مثالى من نماذج البراءة والطهر ، ولم تنفع كل المقالات التى كتبها منير البدرى ، مرة متحدثا الى الحكومة ومرة مستفزا أعضاء مجلس الشعب ومرات عاتبا على هذا البرود القضائى الذى يقتل أهل المجنى عليه وأسماه العدل القاتل .

لعلها الآن وهى ماضية إلى الضفة الأخرى من نهر الحياة الأبدية تتساءل : من منا الذى مات ؟ .. وأنا نفسى حقا لا أعرف من منا الذى انتقل .

جلسوا فى الصالة حول صورتها كأنهم فى قاعة للبكاء ، كانت هناك المناديل الورقية والقطنية المعطرة والمرايا والذنوب والأردية السوداء وعبارات تقال بين الحين والحين لتشجع على البكاء ، أولا بوصفه حقا من حقوق أهل الميت وثانيا لأنه خلاص للنفس المعذبة والمحملة بالهموم ،

وثالثا لأن البكاء فى حقيقة الأمر بكاء على الروح الحية نفسها ورثاء لحالها ، ورابعا لأنه مفيد للعينين وخامسا لأن له قيمته فى بيان مدى حزننا على القيم الغائبة والمثل الذاهبة والأصالة التى رحلت .. سواء كان هذا الكلام صحيحا أم ادعاء .

أضحت الشقة .. قاعة مأتمية تسبح فى رغوة سوداء من الحزن المعتق .. شقة خانقة من تكدس الدموع والأسى وعفن الذكريات المهجورة والأمانى المذبوحة .

هوت رهبة المكان بجبروتها عليه .. وحدها تهدده وتحاصره .. كان يجب أن أموت قبل هذا الوقت .. أنا الآن أتجاوز حدودى وأعيش مرحلة ما بعد السعادة وهذا معناه أننى لم أحسن التصرف .

لقد رحلت إلى الراحة الأبدية متخلصة من كل ما يربطها بهذا العالم الذى يحرص على الانتحار ، ويجدد مستمتعا فى أساليبه ، بينما هو هنا محاصر بكل أسباب الوحشية فى حياة بلا معنى ، لا يملك الفرار منها إلا بقرار ، ولن يستجيب له صاحب القرار مهما توسل أو تذلل لإنهاء عقده مع هذه الحياة .

ما الذى يجذبنى إليها ؟ . مالذى يجذبها إلى ؟!

الناس تتعذب وهى لا تدرى .. من الذى يتعين عليه أن يقول لهم إنهم يتعذبون وهم لا يحسون بما يجرى ؟ . يجب أن يتشكل وفد من البشر ويرفعون عريضة إلى الله مطالبين بتغيرات جذرية فى النظام البشرى .. إنها كما يقال واحـدة من الاثنين .. إما أن كل ما يجـرى من فعل البشر فأرجو أن توقفـه يارب عند حده ، وإما أنه من فعلك وصنع يديك وهذا لا يتناسب مع قدرك .. وحاشاك أن تكون .. فارفع مقتك وغضبك عنّا .

راح فى نوم عميق .. كأنه فى غيبوبة أو موت مؤقت مجرد راحة جسدية بين عذاب وعذاب .. راح فى نوم عميق

★★

فى المستشفى حللوا الجنين الذى نزل ميتا .. تقدمت الممرضة من شريف وقالت له بصوت خفيض :

الدكتور يريدك فى مكتبه .

ذهب إليه شريف وتبعته الممرضة ، لكن الطبيب طلب إليها الخروج وقال لشريف طلبت منى تحليل عينة من الجنين وتمت مقارنتها بالعينة التى أخذت منك فوجدت أنها تشبهها تماما فى كل تراكيبها الكيمياوية ، سأله شريف وهو مضطرب .. يسمع نتيجة امتحانه المصيرى .

– وهذا يعنى ؟

– يعنى أنه ابنك .. من صلبك ومن دمك .

– أحقا يا دكتور ؟!

– ولماذا أكذب عليك .. ومع ذلك هذا هو تقرير عينتك وتقرير عينة الجنين . أعرضهما على طبيب غيرى .

ضرب جرسا فحضر الساعى وقال له : صوِّر نسختين .

بعد لحظات عادت النسخ فأخذها شريف وهو لا يكاد يصدق من الفرح والحزن .. من السعادة والندم .. مضى من فوره إلى صديق صيدلى فقرأ له التقرير .. بالضبط كما أبلغه بفحواه طبيب المستشفى .

تولته الحيرة .. هـل يرقـــص ويفـــرح ويهتف بأعلى صـــوته فى الشارع .

– أنا رجل قادر على الإنجاب .. لقد أنجبت فعلا واغتالوه الكلاب .. أنا قادر .. أنا عادى .. أم يسكت ويأسى لرحيل سلوى التى كان عليها أن تتأنى وألاَّ تسرع بالإجهاض .. فيسعدا معا بالأمل الذى انتظراه سنوات طويلة .

مضى يتحدث إلى نفسه ويكرر كلام الصيدلى وكلام الدكتور .. يهمس إلى نفسه ويعيد الكلمات التى فكت شفرة التقرير وأعلنت قدرته التى ظلت طى الظلم والسجن سنوات .. لم تر النور .. وآه لو رأت النور من يوم تزوج .

لعلها كانت مؤامرة من كل الأطباء لكتم أنفاسه وحرمانه من السعادة الخارقة لكى يكون ناقصا .. لم ينقصه لكى يكون أسعد مخلوق الا أن ينجب ، ها هى المسكينة رحلت قبل أن تغترف من السعادة وتتأكد من أن حبها له لم يكن عبثا ، وأنه لم يكن فقط قادرا على العبث الجنسى والشقاوة ، لكنه قادر أيضا على تخليد هذا العبث وهذه الشقاوة فى صورة بشرية جميلة .

علا صوتـــه تدريجيا وهو يعلن : اقرأوا التقرير .. لقد استلمته الآن فقط .. آخر تقرير عن ولدى الذى اغتالوه .. اقرأوا التقرير .. وقف بعض المارة يحـــدقون فيه .. دنا منهم ومـزق قطعـــة من التقـــرير وأعطاها لأحدهم .

: اقرأ التقرير لتطمئن بنفسك .

مزق قطعة أخرى وقدمها لآخر .

اقرأ بنفسك .. ربما تحسبنى مجنونا أو كذابا .

مزق التقرير قطعا صغيرة ومضى يعطى كل من يقابله قطعة من شهادة التقرير التى منحت له وأثبتت قدرته على الخلق .

التف حوله خلق كثير واضطر أن يصعد فوق أحد الأعمدة ، يمسكه بذراع ويهتف بالذراع الأخرى .. يهتف بعزم ما فيه إلى أن رأى سلوى على بعد ترفل فى ثوب ملائكى فضفاض وشفاف ، لا شىء تحته وحولها بنات جميلات صغيرات يحملن ورودا ، نزل وأشار إليها كى تدنو منهم .. ابتسمت ولوَّحت .. ألح عليها أن تجيىء .

هاهو التقرير .. تعالى لتقرئى بنفسك .. لقد قرأه الجميع .

جاءت إليه .. تلفتت فى هدوء ودهشة نحو الجمع المحتشد ، وللطيور التى على رءوسهم كل ألوان البلاهة .. سألها شريف :

– أين كنت ؟

– كنت بالمحكمة

– المحكمة !

– نعم .. أخرجونى ليعيدوا سؤالى

– وماذا قلت لهم ؟

– نفس ما قلت من قبل

وما هو الذى قلته من قبل ؟

– لا أحد دنا منى .. أنا ما زلت أنا .. لم يدن منى غير زوجى تحول إليهم : هل رأيتم ؟ .. هل رأيتم ! . ألم أقل لكم . وأسرع يصعد

العامود من جديد ، بينما مضت هى فى سبيلها حتى اختفت وهو يصرخ بعزم ما فيه :

– لقد ظهر الحق .. لقد ظهر الحق

سمع جرس الباب فنهض فزعا من نومه الثقيل ليفتح وما بين نبضة قلب ونبضة كان الرجال يكتمون أنفاسه .

★ ★ ★

(١٥)

فى المساء جاء اللواء وأخرجوه له فضربه بعنف ومع كل ضربة وعد ووعيد .. كان واضحا أن اللواء لم تعد لديه أعصاب للحوار وإن كان زورق غطرسته يهتز بنعومة وثقة فى بحيرة سلطانه اللانهائى .

– اسحب بلاغك أو يركب فوقك ستة وعشرون رجلا من هذه العينة .. سوف نبدأ غدا فى المساء .. اسحب بلاغك وإلا ستكون قادرا على الإنجاب بعد تسعة أيام لا تسعة أشهر .

ضربه المساعد الأول ضربا يحق به أن يكون المساعد الأول .

– اسحب بلاغك أو تخصب .. أنا قدرك وهذه إرادتى .. وحياتك منحة منى فارفض إن شئت ..

تقدم منه المساعد الثانى وضربه ضربا حاول به أن يتفوق على المساعد الأول .

ضربا متنوعا وجديدا ..تحدث اللواء بصوت معدنى رنان وقاس .. لم يكن شريف بين من سمعوه .. ورفض الثالث أن يضربه لأنه حين حمله عن الأرض سقط منه وأمرهم الرئيس أن يبولوا فوقه بولا طازجا .

لبس البشر النفايات وتباهوا بها ، خرج من بينهم العظماء الذين غيروا وجه التاريخ فاحتضنوا الفئران وتبادلوا القبلات ، تسللت أرواحهم على أطراف أصابعها وقد هدها الجوع فلم تجد غير الأحذية ، بينما صعدت الشفاه إلى الخفافيش والعناكب مشتاقة للظلام الرحب ،

ورائحته العفنة اللذيذة .. غضبت السماء على الأرض ، فاستلت قطعة من الشمس وألقتها على الأرض ..اشتعلت من فورها ، وطلع من بين الرماد الخامـــد شـــريف بلا أثر لألم أو تشوه ، محاولا البحث عن سلوى .. لكن عبثا .

أخيرا تقلبت فيه الحياة .. توجع وتحرك ببطء شديد ثم عاد فسكن .. تحرك وتألم وسكن حطامه من جديد .. أيتها الحياة كلما غبتُ عنك عدت إليك وعُدْتِ إليّ .. ما الذى يجذبنى إليك ؟ . ما الذى يجذبك إلى ؟ .

كان موثق اليدين إلى مؤخرته ووجهه مغموس فى النفايات ، وكل شئ يبصق عليه ، وفوق ظهره تجرى عمليات فئرانية فزعة ومشبوهة .. وما زال يطوف به السؤال الذى لا أهمية له : من أين لهم كل هذه القمامة وهم فى قفر ! ؟

فى صباح اليوم التالى فتح عينيه على كمية كبيرة من القمامة ودلو من البول .. حين حاول أن يستدير اكتشف لأول مرة قسوة ما لقيه من عقاب ، فدهش لأنه لا زال حيا ، وليس لديه القدرة على تحريك عظمة من عظامه أو حاسة من حواسه بل ويكاد لا يسمع .. كان قبل ذلك يرى سطح الأرض غير المستوية كأنها أتربة غطى بها الزمن ما دفنه الإنسان من الحيوانات .. أُسُود وجمال وفيلة .

غرق فى مستنقع من الموت المؤقت ، وكان معنى ذلك إنقاذه من ذاكرة بائسة لا تهـدأ ، تعـودت أن تلوك اللحظـات التعسة بحساسية مفرطة ، وتضعه أمام نفسه فى مواجهة قاسية . وتضع نفسه بين فكين لا يرحمان .. الرغبة فى الثأر وانعدام القدرة على الفعل .

كانت الريح تقذفه بالأتربة ، بينما يتسلل إلى جسده توجع من الأرض التى تهتز وتترجرج كأنهـــا تركب عـربة تجرى فوق الصخور .

خامره إحساس بأن الحفرة ستبتلعه .. لم يحرك ساكنا ، متمنيا أى نحو من التغيير وأى موضع آخر سيكون أفضل .. لم يستطع أن يفر من التذكر .

كان فى زمن ما عدد من الأنذال مسئولين عن سجن المعارضين وتعذيبهم لحساب الحكومة أو لحساب أنفسهم .. أما الآن فقد أصبح كل صاحب مال وصاحب سلطان وكل قادر على دفع أجرة المقاول يستطيع أن يغتال من يشاء ويعذب من يشاء ويدفن من يشاء ويغتصب من يشاء .. والناس كلها قادرة على أن تفعل ببعضها ما تشاء .. وهذه هى قيمة الحرية .. سأل نفسه : هل بدأ العد التنازلى الأخير نحو الموت المنقذ ؟

كان لابد أن يجئ قبل ذلك .. لقد كان على أن أرحل – لو امتلكت الشجاعة – يوم رحلت سلوى .. فهل الفرصة هذه المرة مؤكدة ! ؟ .. آه.. لا يمكن أن تكون مؤكدة .

وتذكر فى مرارة أن ستة وعشرين رجلا سيخصبونه .. الكلاب .. لابد أن يفعل شيئا .. أم أنه انتهى ، وأصبح ليس أكثر من قطنة مبتلة . أغمض عينيه واستسلم لحالة يأس ثقيلة .. ساد سكون غير عادى ثم رفع رأسه فجأة حين سمـــع وهو غير مصـــدق غطيطين عاليين .. غطيطا منتظما وغطيطا آخر ينتظم حينا ثم يتقطع ثم ينتظم . نهض بجذعـــه .. لم يجد أحدا وقد تـــعود أن يراهما أمامه فى الفراندة

القريبة .. لعلهما سهرا أمس احتفاء باللــواء واستعدادا لحفلة الليلة .. عاد يدرس الموقف.. هل هناك فرصـــة لعمــل شئ ؟ هـل هذا ممكن ؟ دق قلبه وجرى الدم فى عروق رأسه ونبح .. هو بحاجة إلى قطعة من الزجاج أو كبريت ليفك يديه .

لابد أن يفعل أى شئ .. أى شئ .. فهل يمكن للقمامة التى عاشرها أياما وليالى أن تقوم معه بدور ؟ . القمامة التى مثَّلت له أقبح مصير يمكن أن ينتهى إليه إنسان .. هل يمكن أن تنتشله ؟

الإجهاض .. النزيف .. المستشفى .. واوا .. الذئاب .. الحرية .. شمعة والملط .. الظلام .

عم فريد والقطط والكتاكيت التى فى جيوب معطفه .. أليفة وعمارتها الثانية .. الناظر والسد العالى . التلاميذ .. التلاميذ .. الحفرة والمستقبل .. الاجهاض . المستقبل بلا سلوى . ورقة بيضاء مقدسة الوحل .. واوا .. واوا . الباشا وعبد الناصر .. النزيف .. الضباب يهاجم الشمس .. واوا يهاجم الضباب .. الحرية فى الظلام . واوا فى مسجد الرفاعى .. الفئران تأكل أوراق الشجرة .. فستان سلوى كالدانتيلا مثقوب مثقوب . ستة وعشرون رجلا .. ستة وعشرون فحلا يركبون أستاذ التاريخ فى حفرة معاصرة يحرسها السلطان .

ظل طيلة النهار تقريبا يحاول الفرار من تفكيره تفكير قاس لايرحم يصفعه بشدة .. يتصور منظره وهو راقد على بطنه ورجل فى أثر رجل يمتطونه .. و .. و

لعن الهواجس وتقزز من إلحاحها .. رفض الصورة لكنها ألحت وتعجب كيف لايملك القدرة على طرد صورة مقززة من رأسه .. حاول أن يهرب منها ليفكر فى شىء آخر .. لكن ماهو الشىء الآخر ؟ .. ليس هناك شىء آخر غير حياة لها لون مختلف ربها اللواء وواوا الذى اعتدى على سلوى وعليه .

كل أنهـار القهر تصب فى بحـــر المذلـة .. وكل بحار المذلة تصب فيه .

كلما حاول طرد الصورة حاصرته وتعقبته ومزقته ، سافر واوا إلى السويس واستلم سبعة كيلو جرامات من أحدث أنواع الهروين .. كانت أول صفقة من هذا الصنف الغالى تدخل مصر .. وضع فيها الباشا تقريبا معظم مكاسبه من الحشيش عاد واوا ليلقى القبض عليه .. هذا ما قاله الحارسان .. أسرع الباشا إليه ليدله على مكان البضاعة .. قال واوا بكل بساطة ودهاء يحسده عليه الشيطان أخرجنى من هنا .. أسلمك البضاعة .

– نهار أبوك أسود .. وما علاقتى بما أنت فيه

جملة واحدة لن أغيرها ولن أعيدها – يا أنور لايصح .. لقد أغرقتك بالمال ولم أبخل .. لقد كنت حشرة وصرت فى عهدى تلعب بالاف الدولارات .

التفت واوا إلى جندى السجن وقال له :

– ياعسكرى .. الزيارة انتهت ولا أريد زوارا بعد ذلك .

اختنق وجه اللواء وزعق وهو يدنو من واوا :

– سأقتلك ياكلب .. سأشرد أهلك .. سأفرم عظامهم ..

ابتسم واوا فى سخرية وفتح صدره قائلا : أنا ميت ميت . تفضل

منذ ذلك اليوم لم ينم الباشا .. اتصل بكل المستويات

.. دفع أكثر من مليون وتنازل عن أرض وعن نساء غير ما وعد به ، حتى ضاق صبره وفقد الثقة فى الجميع وقرر أن يتصرف بنفسه .

فى المساء جاء ستة وعشرون رجلا وأكبر باشا فى البلد ، وكأنهم سيحاولون سرقة جبل المقطم .. مضوا إلى الداخل حيث أقام لهم الرئيس مأدبة على شرف الفريسة النبيلة .. إنه كما قال ليس شخصا عاديا .. إنه أستاذ تاريخ ، ولابد أن يعامل معاملة تليق بدوره فى تربية النشء وإعداد الأجيال .

لعلها أكبر مأدبة أعدها الرجل منذ بدأ عمله الجديد وهو هوايته المفضلة قبل وبعد أن ترك البوليس .

امتزج اللحم على المائدة بالخمر ، والمشهيات بالحشيش ، والحمام بالسجائر والضحكات بالجمبرى ، والشتائم بأفخاذ الرومى والبط ، والشىء باللاشىء .. اجتمع أكبر الضباط بأعتى المجرمين فى تفاهم وانسجام ، وكانت القطط على الأبواب تجلس مع الفئران والذئاب والكلاب تنتظر الإذن بالمراجعة ..

وعدهم الباشا بوليمة أفضل بعد خروج واوا .. سيكون أستاذ التاريخ قد تملح فى برميل خمر مغلق .. ساعتها نمدده أمامنا هنا وننزع ما فى قلبه من غل .. وضج الجميع بالضحك .. كان ذلك بداية للمرحلة الثانية من سهرة العمر .

تعالى ضجيج الطبل والزمر واحتدم الصخب المجنون

إلى أن وقــف الباشا ، فتوقف الجميــع وأمرهـم أن يستعدوا .. ثم ســأل :

– من الذى سيفض البكارة ؟

قالوا جميعا

– أنت طبعا يا باشا

هز رأسه وقال فى حسم :

– لا .. لا يا بهائم أنا سأتفرج وسأعطى الدرجات ، ضحك الجميع .. وقال البعض :

– صح يا أستاذ

وأدرك أن الأمر ربما يتأخر إذا تركه للديمقراطية فقال :

– هيا يا مسعود

والتفت إلى هلالى :

– هل أنت مستعدّ ياهلالى ؟

– طبعا يا أستاذ

– باشا وحياة أمك

– طبعا يا باشا

أسرع هلالى وحمل آلة تصوير الفيديو وتبعه غالى بالبروجيكتور وتأهب الجميع ليشاهدوا العرض الذى سيستمر حتى الفجر وربما يستكمل فى الليلة القادمة .. دنا مسعود من هلالى قائلا :

– أريد أن تخرج لى فيلما رائعا .. تلف من حولى وتدور. قال هلالى على الفور :

– عينيه يا مسعود .. لكن لن يبدو منك غير مؤخرتك .

ضحك عاليا كل من سمع .. ثم عاد البعض يتذكر ويضحك ، ونقل بعضهم الحوار إلى الباشا اللواء ، فضحك وانتشى سعيدا بخفة ظل رجاله .. استيقظت خفة دمه هو أيضا فقال مشاركا فى المضحكة :

– أنت اسم على مسمى يا مسعود .. سوف تبدو مؤخرتك فى التليفزيون.

قهقه الجميع .. قهقهوا لسنوات قادمة لأن الذى يقول النكتة هو الباشا الذى استطرد .

– وهذا حظ لا أظن أحدا ناله قبلك فى تاريخ الشاشة الصغيرة وربما الكبيرة .

واصل الجميع الضحك ماعدا مسعود الذى اكتفى احتراما للباشا بالابتسام مفتوح الفم ثم قال ليوزع السخرية عليهم :

– سيكون لهم جميعا نفس الحظ ياباشا .

زعق اللواء ضاحكا :

– فعلا .. فعلا

كان هلالى صامتا مشغولا بفكرته ، يقلبها ذات اليمين وذات الشمال وداعبته ثقة تامة فى النجاح والمكسب الخرافى ، إذا أمكنه تنفيذ العملية لحسابه بأن يطبع من الفيلم نسخا .. يحتاج فقط إلى مزيد من

الإضاءة .. طلب على الفور من غالى البحث عن لمبة ٤٠٠ شمعة وتوصيلة

حدد الباشا أسماء الأربعة الذين يتعين عليهم أن يجتازوا طريق مسعود .. وتقدم الجميع إلى منصة العرض وأسرع حاملوا الإضاءة يقتربون من الحفرة التى تستقر فى قاعها الفريسة ، ويطلقون الضوء عليها .. طلعت عليهم تلال القمامة ورائحتها البشعة .. تصور الجميع ذعر شريف مما سيحيق به فاختفى فى القمامة .. مال أحدهم وسحب السلسلة فأسرعت إليه خاوية .. ذعر الجميع وهاج الباشا .. فى ثوان أخرجوا كل القمامة .. لم يكن تحتها إلا وحل البول .

ثار الباشا بكل اللغات الحيوانية ، وتلاحقت قراراته فى غضب إلى أن توقفت عند الأمر بربط الحارسين مكان أستاذ التاريخ ، وقف لحظات كأنه يبحث عن وسيلة جهنمية للانتقام من أى شىء ..

كانت كل بقعة فى جسده تتدرن وتتتابع عليها الألوان من براكين الغضب الجوانيـــة ، والرجـــال من حوله يتمنون فى كل لحظة أن تتدخل أى قـــوة حتى لا يتمادى فى جنونه ولا يستبعدون أن يطلب إليهم الانتحار بستة وعشرين طريقة .. وكل فرد عليه أن ينتحر بطريقة مختلفة .. تذكر بعضهـــم الذئبين اللذين يربيهما الباشا فى فيلته التى فى الهرم .

صرخ فيهم : أنتم لا تعرفون مالذى سيحدث لكم إذا لم يحضر هذا الصرصار خلال نصف ساعة على الأكثر ..

اختفى الجميع من أمامه ليمسحوا كل شبر فى جبل المقطم بحثا عن شريف

كان شريف منذ نصف ساعة يجرى وهو لا يصدق كيف خلص نفسه .. معجزة سوف يحكيها لكل مخلوق .. ليته كان يعرف المكان أو الطريق لينتقم .. لقد ذهب للأسف معصوب العينين .. وهاهو يعود جريا فى الظلام يضرب فى بيداء صخرية متسقة مع كل شىء .. لم يأكل لقمة من ثلاثة أيام وعاشر القمامة وأحط ما فى الجسد الانسانى والحيوانى ، وضرب ضربا يكفى لقتله عدة مرات .. وهو لازال يجرى بحثا عن حياة غير حياة هم فيها .. وإن كان قد أصبح يشك أن هناك حياة ليس فيها أمثالهم .

★ ★ ★

(١٦)

بعد أن خرج من المستشفى .. لم يبق فى البيت غير ليلة واحدة ، وعصر اليوم التالى ذهب يبحث عن شمعة

كان مستعدا أن يمضى فى أى طريق يمكنه من الانتقام .. لا من الباشا وحده ولا من واوا .. فلا معنى لهذا الانتقام .. المسألة بدت أمامه أكبر وأعمق والساحة التى يلعب فيها الفساد لعبة بانورامية .. طولها طول الوطن .. وعرضها عرضه .

لابد أن تمتد الأيدى وتلتحم القلوب المحتشدة بالغضب وتمضى خلف العقول التى تؤرق أنوفها رائحة العفن ذى الألوان النارية البراقة..

لم يجد شمعة .. أنبأه أحد الأصدقاء أنهم قبضوا عليه فى الفجر .. مضى على غير هدى تحمله قدماه من شارع إلى شارع .. يتحدث إلى نفسه وإلى الناس وإلى الله

ذهب إلى منير البدرى فى جريدته .. لم يجده .. عاد فى نفس الشوارع التى كان يسير فيها مثقل الخطو بدا له المساء وقد احتل كل الأركان .. لكن الأضواء الشاحبة شرعت هى الأخرى تتفجر هنا وهناك وتتجدد الرغبة فى المسير ..

فى ميدان التحرير توقف وتأمل التمثال المهيب .. تخطى السور الشائك .. سار على الحشيش المبتل .. دنا من التمثال المهيب الذى كان

صاحبه ينظر إلى أعلى .. تنهد وهو يحس بالخور والانهيار .. تهدل جسده إلى الأرض .. وضع رأسه تحت قدمى التمثال وتمدد .. ساد هدوء نسبى وسكينة وكان العالم ينتظر لغة أخرى .

كان الكون يرهف السمع .. ينتظر أن ينطق أحد بحرف وبأى لغة

★ ★ ★

(١٧)

لم يكن شريف حتى هذه اللحظة يعرف أن واوا هرب من السجن وبدأ يعمل لحسابه الخاص ، لم يعجز عن اكتشاف الوسيلة التى تمنحه حق الوجود القوى ضد الباشا والسجن والسجان .. كان كل شىء يتهيأ لحياة جديدة ..

★★★

رقم الايداع : ٢٣٠٩ / ١٩٩٣

I . S - B . N
977 - 07 - 0251 - X